أُمي لا تُخاف

«أحداث تستحق أن تُكتب.. ولا بد أن تُقرأ»

ليلى وطفلها بتال.. قصة هروب مثيرة من موت حتمي لا يتوقف عن مطاردتهما!

رواية

حزام بن راشد

موفا

ساحر الكتب

العنوان

أمي لا تَخاف

تأليف

حزام بن راشد

الطبعة

الأولى 2025

ردمك:

978-9921-811-42-1

رقم الإيداع: 2025/2889

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

www.novapluskw.com

إهداء

مهمّ وجودهم؛ لأنه سبب مقنع من أجل البقاء..

ربما يختصرون الكثير، لا سيما أنهم بمثابة الأمل الذي يُنسينا الألم..

يشعرنا بأنهم كزخة المطر، يُحضر معهم روعة الانتشاء..

مهما تعثّرنا؛ نكتشف برفقتهم الجانب الأجمل من حقيقة الحياة.

لا أعظم من الأمهات..

تحديهنَ لقسوة الظروف من أجلنا؛

هو ما يُثبت لنا هذا.

"تنويــه"

جميع الأحداث مستوحاة من خيال الكاتب...

وجميع ما تمّ سرده من تفاصيل؛ هي تفاصيل قد تكون ليست..
"حقيقية"

لا وقت لديّ؛ أيّ تأخيرٍ هو بمثابة اقتراب نحو النهاية..

يجب أن أنجو بجلدي قبل فوات الأوان، وقبل أن يستيقظ هذا المجرم الحقير الذي سمحتُ له بغبائي أن يشاركني سرير النوم والحب، قد يكون الغباء قرارًا نتخذه بعد رحلة شائكة احتاج بعدها الفكر للراحة،

وها أنا أدفع تكاليف إجازة عقلي من رصيد أماني وأمان طفلي.

لم يكن هناك خيار سوى أن أوقظ ابني؛ حتى نهرب سويًا من قبضة زوجي، وقد كان..

حدث ذلك بكلّ حذر وبمحاولة صعبة؛ كي لا أُصدر أيّ صوت، ولأن ابني يُعاني من صعوبة النطق منذ ولادته، سألني من خلال ملامحه الطفولية وهو يمسح عينيه من بقايا النوم، وكأنه يقول لي:

(إلى أين نذهب يا أمي؟).

فأجبته متصنعة الابتسامة، وأنا لا أملك أيّة إجابة، وبصوت منخفض مرتجف:

- سنذهب إلى أبعد مكان يحمينا من شرورهم.

طلبت منه أن يهدأ ولا يصدر أية جلبة، ثم عاونته على النهوض..

وغادرنا وأنا أحمل حقيبة صغيرة وضعت بها أهم الاحتياجات، وحدث ذلك وأنا أعلم أن تصرفي لم يكن الخيار الأمثل؛ لكنه الأفضل من بين جميع الخيارات السيئة..

فالهرب أحيانًا من النيران هو أفضل بكثير من محاولة إطفائها،

خصوصًا إن كنت لا تملك الماء.

تعالوا معي؛ حتى أُرتِّب لكم الأحداث..

أعلم أن الجميع ينتظر أن أكشف عن هُويتي، ولكن سأكتفي باسمي الأول؛ أنا ليلى..

من دولة عربية لا داعي لذِكر اسمها، عشتُ في ماليزيا لفترة من عمري، وصلتها في رحلة بحثي عن العمل؛

بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية في بلادي، كان ذلك في عام 2015م

عمري الآن 32 عامًا، تزوجت في بدايات عام 2024 رجلًا من دولة ميانمار في الخمسين من عمره وأنا في سن الـ 31 عامًا..

قد يبدو الأمر غريبًا؛ ولكن وضعي النفسي والمادي ما جعلني أتجاهل فارق العمر.. وكذلك فارق الثقافات الذي بيننا، والأهم من هذا كله؛ إنه زواجي الثاني.. فقد حمل الماضي زواجًا أولًا وطلاقًا افتتحتُ به حياتي بالغربة، عندما كان عمري 22 عامًا فقط، ونتج عن هذه الزيجة طفلي الأول..

وللأسف ابني هو سبب طلاقي!

لم يكن زوجي الأول يرغب في الإنجاب.. ولكن جسمي لم يستجب لرغبته وتمرد في سبيل الأمومة..

رغمًا عن وسائل المنع كلها.. ودفعت الثمن وحدي بعد أقل من سنتين من هذا الزواج..

والأبشع من هذا كله، هو اكتشافي أن عقد زواجي منه لم يكن صحيحًا..

كان هدفه الوحيد أن يَظفرَ بجمالي ويُشبع غرائزه الحيوانية؛ لذلك لم أحزن كثيرًا حين انتهى..

لم تكن حقيقته الأخلاقية تستحق بقاءه ليكون أبًا..

ففي العلاقات المبنيّة على العهود، لا أحقرَ من الباحثين عن التسلية قبل الارتباط بآخرين..

ولا أنذلَ من المنسحبين خلف أهوائهم قبل الاقتراب مَن قصّ شريط الوصول!

لم يكن يهمني بقاؤه؛ بل ما كان يشغلني كله حينها هو أمر الولادة.. وكيف أنجح في الحفاظ على المولود دون أن أوقعَ نفسي في المشاكل.. لذلك هددته بالشكوى وإثبات ذلك بالمحاكم،

وبسبب خوفه على أعماله التجارية -والتي كانت تضمن له المال والحياة الكريمة- وافق على الاعتراف بالطفل، وترك رعايته لي كليًا مقابل الطلاق وعدم المطالبة بأية حقوق مستقبلًا..

وقد كان ذلك؛ تنازلتُ عن كلّ شيء مقابل الاحتفاظ بأهم شيء؛ ابني..

والبغض كله قد حشده قلبي المكسور تجاه ذلك الوضيع الذي لم يكن رجلًا معي..

لقد خضتُ تجربة تبدّل المشاعر حينها؛ تلك الحالة غير المفهومة،

فكم مِن شخص أحببناه حبًا جمًا..

وأصبحنا نكرهه أضعاف قدر حبنا له!

المهم.. مرت الأيام حتى وضعتْ ولدًا جميلًا يُشبهني، واسميته بتال..

ولم أفكر جديًا في الزواج إلا بعد أن أكمل عامه السابع تقريبًا، وكان هو أجمل مكاسب غُربتي على الرغم من صعوبة الاهتمام به، وكان سليمًا في نظري، رغمًا عن إعاقته وعدم مقدرته على النطق كما أخبرتكم..

تعلمت حينها درسًا لا يُنسى وهو؛ عليكَ ألا تُعطّل حياتكَ بسبب مَن لا يستحق..

فحزنكَ المستمر على الماء المسكوب لن يُعيده إلى كوبِكَ مجددًا.

دعوني أحدثكم عن زيجتي الثانية من لقمان.

هو رجل أعمال ميانماري، نشيط في مجالاته، حنطي اللون، متوسط الطول ويخلو وجهه من الشعر كليًا..

تعرف عليّ في مقهى شهير بالعاصمة كوالالمبور كنتُ أعمل به..

لقد جذبتني وسامته، وشخصيته اللافتة على الرغم من عمره الكبير، ففي كل مرة يأتي فيها..

كان يطلب أن أعدّ قهوته بنفسي.. وفي كل مرة كان يُكرمني ببعض الدولارات، وكان ذلك يسعدني على الرغم من نظرات الغيرة والامتعاض التي كانت واضحة على ملامح بقية زملائي الموظفين..

ولكن لم يكن يعنيني ذلك في شيء طالما كنتُ حريصة على انتظامي وتأدية عملي والحفاظ على نفسي من المغريات كلها، والأهم هو دفاع زميلي العربي كريم؛ والذي كان يُشاركني الغربة، هو مَن كان يُحفِّزني على الصبر والعمل وكسب احترام الزبائن.

حتى أتى ذلك اليوم..

تحدث إليّ لقمان بلغتِه الإنجليزية الركيكة ودعاني لفنجان قهوة في مقهى آخر..

حاولتُ أن أعتذرَ بلطفٍ خصوصًا أن طلبه لم يكن منطقيًا، كيف له أن يطلب مني شرب القهوة خارج المقهى الذي كان يبيع القهوة أيضًا؟

لكنه كان مُصِرًا حتى أقنعني بعد أن كشف لي أن لديه أمرًا مهمًا يريد أن يخبرني به..

حينها وجدتُ نفسي أستجيب، فلا مبرر أن أرفض طلبًا كهذا من شخصٍ عاملني منذ البداية بلطف وبشاشة.

ودون إسهاب في التفاصيل..

يكفي أن أخبركم أنه قد كشف لي عن إعجابه، ومن ثَمّ قدّم لي هدية ملفتة؛

عبارة عن سلسلة عنق ثمينة مصنوعة من الذهب، والأمر غير المتوقع أنه عرض عليّ الزواج!

نعم بهذه السرعة كلها وبهذه البساطة، لم أكن مستعدة لمثل هذا

الموقف إطلاقًا؛

لذلك وجدتُ نفسي أرفض هديته بكلّ أدبٍ وأكتفي بهذا القدر من اللقاء، لكنه أصر بمحاولاته وبكلّ زقي كاشفًا عن جديته وعن جاهزيته لصناعة حياة كريمة تكفيني الشقاء الذي كنتُ أعيشه حينها..

وكنوعٍ من محاولات التنفير، كشفتُ له عن زواجي السابق وأخبرتُه أن لديّ طفلًا يشغل يومي بسبب الحرص على تربيته والاعتناء به.. لكنه لم يبدِ أيّ تردد؛

حيث وجدتُه يبتسم وهو يضع الهدية بين يديّ مرة أخرى، ويُخبرني بأن هذا لا يُشكّل عائقًا بالنسبة له.. ووعدني بأنه على استعداد تام لرعايته، وكان إصراره لافتًا كما لو أنه بات أسير مظهري الذي اعتدت أن يلفت نظر الناس حيث حللت؛

فاضطررتُ حينها لقبول هديته، وعليه طلبتُ منه مهلة للتفكير.. حيث لم أكن أملك إجابة غير هذه أقدّمها له حتى أغادر من دون أن أجرحه بالرفض الفوري..

وانتهى اللقاء قبل أن نُكمل شرب قهوتنا في تلك الليلة.

وبعد أقل من شهر.. حصل الزواج!

كان ذلك بعد مشاورات مع أختي الكبيرة التي كانت تعيش في كندا برفقة زوجها الكندي..

لقد افترقنا تحت بطش الظروف خصوصًا بعد وفاة والدينا وضيق

الحال..

ومن بعد ذلك، لم يكن أمامنا سوى تجربة الخوض في معترك الحياة والبحث عن الفرص غير المضمونة في هذا الكوكب المتقلب..

أختي الكبيرة هي من نصحتني باستغلال هذه الفرصة التي لن تتكرر لأية فتاة مثلي، ولا أنسى جملتها التي اختصرت لي كل شيء من خلالها حين قالت لي:

- إذا لم تستثمري جمالكِ الرباني للوصول إلى حياة كريمة وشرعية، فلا قيمة لهذا الجمال الذى طالما وضعك فى مواقف سيئة ومحرجة وسط وحوش الذكور الذين تُصادفهم يوميًا في حياتنا الكادحة.

حاولتُ أن أتحجج بطفلي بتال وبخوفي من تَكرار تجربة الزواج.. لكنها قاطعتني بالإجابة الحازمة

حين قالت:

- إن لم يكن من أجلكِ، فمن أجلِ صغيركِ الذي يحتاج إلى الرعاية الخاصة.

لقد كانت واقعية؛ فقد مللتُ هذا الواقع..

وهذا الزواج قد يكون السبيل الوحيد للتغيير. خصوصًا أنني اشترطتُ عليه أثناء أحاديثنا المتقطعة أن ابني سيُرافقني في خطواتي كلها؛ فوجدتُه يُرحّب بذلك ولم يمانع أبدًا..

والحقيقة أن هذا الأمر قد أدخل إلى قلبي الكثير من الراحة لاتخاذ

مثل هذا القرار؛

فضمان حياة مستقرة سليمة لولدي المسكين الذي ليس له أيّ ذنب في أن يدفع ثمن ظلم والده عديم الرجولة والشرف، وهو أولوية قصوى لديّ ومقدّمة على نفسي حتّى..

خصوصًا أن فكرة العودة إلى الوطن ليست واردة في قاموس مَن هم مثلي من البشر..

في تلك الفترة كنتُ شاردة البال جدًا، كثرت أخطائي في العمل بسبب عدم التركيز..

وفي كل كبوة كان زميلي كريم يتدخل بشهامته ليساعدني ويخرجني منها؛

فهو مَن كان سببًا رئيسيًا لتوظيفي بعدما تعرف عليّ وعلى معاناتي، وكيف أنني أعيش وحيدة بلا أهل أو سند، كنتُ في حالة نفسية سيئة أحتاج فيها إلى الحديث، فلم أتمالك نفسي وأخبرته عن عرض الزواج الذي كان يشغلني.. لقد فاجأني بردة فعله، كان متحمسًا لذلك أكثر مني.. وجدتُه يقنعني بالقبول دون تردد؛ حيث تحدث بأسلوبه المنطقي كعادته قائلًا:

- لكلّ قرار إيجابيات وسلبيات، ما علينا فعله كله عند اتخاذ أي قرار هو أن نضع كلًا منهما في كفة ونراقب ما الذي سترجح كفته، صدقيني يا ليلى أن الإيجابيات في هذه الفرصة أكثر من السلبيات بكثير.

ثم بدأ يعددها لي بأسلوب رائع ومبسط؛ حيث كان يُذكّرني

بوضعي المادي وعمري الذي كان قد لامس الثلاثين دون أن أكوّن نفسي أو حتى أصنع لابني أسرة يستند إليها.. إلى أن وصل إلى نقطة مفصلية حين قال:

- يكفيكِ أنه زواج شرعي واضح دون طرق ملتوية.

حدثيه كان مُقنعًا ولم أكن أملك أيّة أعذار تجعلني أرفض فرصة كهذه للارتباط بشخص وسيم وراقي..

بالإضافة إلى أنه مستقر الوضع والمادة، ولكن لم أصدق أنني سأعيش في بقعة جغرافية اسمها ميانمار؛

هذه الدولة التي لم أعلم عنها شيئًا ولا حتى شكل أو ألوان علمها الرسمي!

ولكن من أجل ابني.. مستعدة أن أفعل أي شيء، وكل شيء وبلا تردد.

اتفقتُ على كل شيء مع لقمان وحتى على المهر الذي كان جيدًا بالنسبة لي..

ثلاثة آلاف دولار وعقد من الذهب، والأهم حصولي على فرصة صناعة أسرة برعاية ابني الذي يجب أن يبدأ تعليمه الخاص قبل أن يفوته الزمن.. وعليه سأتمكن من تربيته تربية سليمة تنعكس عليه مستقبلًا بالإيجاب..

أذكر جيدًا ذلك اليوم الأخير لي بالعمل.. حين قدّمتُ استقالتي وودعتُ زملائي بالمقهى..

ثم توجّهتُ إلى غرفتي المتواضعة وجلستُ مع ابني بتال..

أخبرتُه بأنه سيصير له أبًا يرعاه ويحبه ويساعده في كل شيء، والحقيقة كانت إجابته هي الصمت فقط كما هي عادته، ظل ينظر إليّ بملامح صامتة؛ فابتسمتُ له ابتسامة ناقصة..

فما كان منه إلا أنه ردّها، ولكن بابتسامة أكثر اكتمالًا وصدقًا وعفوية.. متخطيًا بهذا عجزه عن النطق والتعبير، وذلك من ديدن الأطفال.. ملامحهم أصدق من ملامحنا وأحاديثنا كلها وحتى نواياانا..

مرت الأيام وقمنا بجميع إجراءات الزواج..

وقام لقمان بعمل حفلة بسيطة جدًا في مطعم جميل جدًا بالعاصمة كولالمبور..

جعلتني في قمة سعادتي.. تمنيتُ حينها لو حضر والداي معي اللذان طالما كنتُ افتقدهما في قراراتي كلها..

وكذلك أختي التي لم تتمكن من الحضور..

كان ذلك وسط حضور بعض زملائي وبعض أصدقائي، وخصوصًا زميلي العزيز كريم..

والذي كان حزينًا جدًا لمغادرتي على الرغم من سعادته بقرار زواجي..

فالعِشرة التي جمعتنا لم يكن من السهل تجاهلها بسهولة..

وبدأتُ في حياتي فصلًا جديدًا، تمنيتُ أنه لم يكن، نعم، أقولها لكم

بكل وضوح، ليته لم يبدأ!

الحياة قد تبتسمُ لكَ..

لكن الابتسامة ليست دليلًا مطلقًا على السعادة..

قد تكون أسلوبًا تعبيريًا ساخرًا على واقعنا المرير!

بعد مرور ثلاثة أيام من زواجنا..

كانت أجمل فترة قد مرّت عليّ منذ أن بدأتُ الغرق في بحر الغربة..

شعرتُ حينها كما لو أن هذا المشروع أشبه بطوق النجاة الذي انتشلني أنا وابني..

تجولنا في الكثير من الأماكن الرائعة بالعاصمة الماليزية وخارجها، مررنا على بعض الولايات الجميلة هناك والتي لم أزرها من قبل.. إلى أن وصلنا إلى جزيرة بينانج(1).

استخدمنا العبّارة للوصول في رحلة كانت ممتعة في تفاصيلها؛

حيث مكثنا في منتجع جميل جدًا، أقل ما يمكنني وصفه به لكم أنه كان يُشبه الجنة..

ولكن ما أزعجني قليلًا هي بعض الطلبات التي كان يطلبها مني!

لم تكن تُشبه شخصيتي، وعليه كنتُ أرفض بلباقة.. كان يطلب مني مثلًا النزول معه إلى البحر أمام مَن يوجدون هناك، وفي مرة من المرات، طلب مني أن أترك ابني بتال ونخرج وحدنا..

الحقيقة لم أمانع؛ فقد كنتُ أتفهم رغبته في بعض الخصوصية الزوجية، وليس جديدًا على بتال أن يبقى وحده بعض الوقت، فقد كنتُ أتركه لساعات عند الذهاب إلى عملي بالمقهى..

لكنه فاجأني في تلك الليلة بأن أحضر لي فستانًا مثيرًا لم ألبس مثله من قبل، طلب مني ارتداءه..

وأخبرني بأنه قد حجز لي موعد عشاء برفقته في أحد المطاعم

الفخمة بالمنتجع نفسه..

وبعد العديد من المحاولات، وافقت على ارتدائه..

لديه أسلوب مثير في الإقناع أحيانًا، شعرتُ بحميميته المفرطة حينها..

تأكدتُ من نوم بتال، ثم تحركنا بسيارة الجولف نحو المكان، كان ملهًا ليليًا كما بدا لي..

وضع يدي تحت ذراعه وتقدّم، كان واثقًا وهو يتحرك أمام الجميع.. يرسل الابتسامات إلى الجميع..

خصوصًا إلى الحسناوات.. فالمكان كان ملغمًا بأجمل فتيات الأرض، ومن جميع الجنسيات..

وأصوات الموسيقى كانت تحجب أي صوت آخر، والإضاءة خافتة لكنها تجعلكَ تنتبه إلى جميع النظرات، وكؤوس الخمر انتشرت على الطاولات أكثر من أية مشروبات أخرى..

شعرتُ لوهلة كما لو أنه كان يستعرض بي أمام الآخرين!

فتاة أصغر منه بقرابة العشرين عامًا، جميلة جدًا، هذا ما يتمناه كل خمسيني يملك المال..

أجلسني على طاولة يجلس أمامها ثلاثة رجال وفتاتان، وجلس هو بجانبي ووضع ذراعه من خلف رقبتي وأشعل سيجارًا، ورحب به الجميع وهم يشيرون نحوي مشيدين بحسن اختياره!

اقترب من أذني وأخبرني محاولًا كسر صوت الموسيقى قائلًا:

- إنهم يباركون لنا زواجنا بطريقتهم الخاصة.

حاولتُ تجاهل تلك المظاهر كلها التي لم ترق لي، إلى أن تناولنا بعض المأكولات، قدّم لي كأسًا؛

رفضت فورًا، وأخبرته أنني لا أشرب الخمور؛ استغرب هذا لكنه لم يجبرني، وبدأ هو في الشرب..

لم أحسب حساب هذه العادة التي اكتشفها فيه هذه الليلة..

اقترب أحدهم مني وطلب أن نرقص سويًا.. التفت مباشرة إلى لقمان وأنا غاضبة..

لكن وجدتُه ينظر إليّ مبتسمًا؛ ضُعقتُ من ردة فعله، ومن دون إرادة وجدتُ نفسي أصرخ على الرجل وأطلب منه الابتعاد، وهنا تدخّل لقمان وطلب مني الهدوء وهو يضحك..

ثم عرض عليّ أن أرقص معه، وكنتُ مندهشة من تصرفه غير المتوقع!

الحقيقة لم أحتمل ذلك الموقف وردة فعله الباردة تجاه ما حصل؛

فغادرتُ وقد استبد بي الغضب.. حاول اللحاق بي دون جدوى، وما إن وصلت لباب الخروج..

حتى دوى خلفي صوت انفجار هائل يصم السمع وشعرتُ بوهج يمس جسمي كهواء شديد الحرارة! تناثرت بعض الطاولات والكراسي فجأة، بل تحطمت، حتى فقدتُ القدرة على السمع لثوانٍ معدودة بشكل لم أفهمه حينها..

حالة عارمة من الفوضى حلّت بالموقع، التفتُّ فوجدتُ بعض القتلى، والكثير من الدخان المتصاعد..

الكل كان يركض فزعًا وبشكل جنوني، سحبني لقمان مباشرة وأخرجني بسرعة إلى الخارج قبل أن أسقط من تدافع الفارين.. انفجار صغير وقع في الملهى!

الإضاءة بالخارج كانت أوضح بكثير.. فلاحظتُ أن جرحًا صغيرًا كان على جبين لقمان..

تسبب له بنزيف بعض الدم، يبدو أن بعض شظايا تسببت له في هذا؛ ابتعدنا عن مكان الفوضى، وبقينا نراقب نحن وبقية المتجمهرين والناجين ما خلّفه هذا الحادث غير المتوقع..

خرجت إحدى الفتيات اللواتي كنّ معنا على الطاولة وهي ملطخة بالدماء..

كانت تحاول التقدم بصعوبة وهي مرعوبة.. وقعت عيناها على لقمان وبدأت تصرخ وهي تحدثه بالإنجليزية قائلة:

- لقد قُتل مَن كانوا على الطاولة معنا كلهم.

ثم سقطت، ووصل في الوقت ذاته المسعفون الخاصون بالمنتجع وحملوها من أجل إسعافها..

الحقيقة أنني كنتُ في حالة رعب غير مسبوقة، لم أشاهد في حياتي مثل هذه المناظر قَط..

مناظر الدماء والصراخ وتدافع الناس بشكل مخيف..

تخيلت لوهلة لو أنني لم أغضب من ذلك الموقف وأتخذ قرار المغادرة بجرأة، ومن ثم تبعني لقمان حتى يثنيني عن القرار.. لكنا سويًا في عِداد الموتى!

أخبرت زوجي عن رغبتي في العودة إلى ابني بتال فورًا..

ووجدته يحاول تهدئتي، قبل أن يطلب من المسعفين أن يُضمّدوا بعض الخدوش التي أصابتني ولم أنتبه لها بسبب دهشتي من الموقف، وكذلك تضميد جرحه الذي أصابه، وقد كان ذلك، وغادرنا غير مصدقين ما حدث معنا..

ونحن في طريقنا إلى العودة نحو مسكننا الخاص بالمنتجع، لاحظتُ غضب لقمان..

ربما كان ذلك بسبب فقدانه لأصدقائه بهذا الشكل المؤلم؛ فسألت عن سبب ذلك الانفجار..

فأجابني بأنه لا يعلم أي شيء، ثم واصل:

- ربما تكون عملية إرهابية، المهم أننا نجونا يا ليلى.

- عملية إرهابية! مَن قام بها؟ وهل استهدفوا طاولتنا فقط أم بقية الطاولات كذلك؟

- لا... لا... مثل هذه العمليات يكون الهدف منها ضرب السياحة بالجزيرة بسبب منافسات بعض المستحوذين على إحياء مثل هذه السهرات... ربما هذا هو السبب يا عزيزتي.

تحليله مقبول بعض الشيء؛ فلم أكن على علم بمثل هذه

التفاصيل، ولم أكن أملك سوى تصديقه..

حاول بعد ذلك تلطيف الوضع وسألني عن سبب مغادرتي غاضبة.. والحقيقة أن سؤاله هذا قد أغضبني مجددًا، لكنني تمالكت أعصابي بعض الشيء وأخبرته بوضوح أنني لا أقبل هذه الحياة..

وشرحت له بأن طبيعتي ونشأتي لا تسمح لي بالتأقلم مع هذه البيئة أبدًا..

نظر إليّ بصمتٍ قبل أن ينطق قائلًا:

- ستعتادينَ مع الوقت، الحياة تستحق أن نعيشها بلا قيود.

لم أستوعب ما الذي كان يهرطق به ذلك الخمسيني؛ فقلتُ له بوضوح والغضب واضحًا على ملامحي:

- لن أستمرَ بهذه الزيجة وسط هذه النفايات التي تعتقد أنها حياة.. أنا زوجة فقط.. ولديّ طفل يهمني تربيته في بيئة سليمة.. هل يمكنكَ أن تتفهم ذلك؟

أشار بيده بعدم مواصلة الحديث بهذا الانفعال..

ووعدني أن ما حدث لن يتكرر إطلاقًا، وتحجج بأن تصرفاته اليوم تعكس اختلاف الثقافات فيما بيننا..

وأن أكثر ما يسعده هو البقاء معي ومع ابني ووجدتُ نفسي أتقبل اعتذاره وأصدّق وعده لي..

كان يجب عليّ أن أتعاملَ مع هذه الفترة كفترة اكتشاف له، لعل وعسى أن تتضح الصورة فيما بيننا ونتوصل إلى صيغة مشتركة

تجعلنا نواصل هذه العلاقة والتي لم أكن مستعجلة في إنهائها..

انتهت تلك الليلة الدراماتيكية بما فيها كله من مواقف وتفاصيل..

في اليوم التالي..

شعرتُ أنه كان يرغب في كسب رضائي بعد تفاصيل الليلة الماضية..

وجدته قد حضَّر لي طاولة متنوعة من الإفطار، وأحضر لابني بتال بعض الحلويات والفواكه المغطاة بالشوكولاتة.. ابتسمتُ له وكأنَّ شيئًا لم يحدث؛ فقام باحتضاني وتقديم الاعتذار لي بعد أن قبَّل جبيني بلطف، كان أكثر ما أسعدني، هي تلك البهجة التي لمستها على وجه ابني الحبيب؛

فلأول مرة يُمارس حياته كطفل، ويجد فوق حاجته من المتعة.. ولا أمتع من سحر الحلويات ومفعولها على صناعة الفرح لأي طفل بالحياة، لقد كان صباحًا جميلًا كما أتمنى تمامًا..

وبعد أن تناولنا وجبة الإفطار، أخبرني عن موعد المغادرة..

ولكن ما أثار استغرابي.. هو أن رحلتنا لم تكن إلى دولته مباشرة.. أخبرني أننا سنغادر عبر الجو إلى تايلاند ومن ثَمّ إلى ميانمار!

وعندما سألته عن السبب؛ أجابني بأنه يريد استكمال متعة جولات شهر العسل، وأضاف أن تايلاند ملاصقة لحدود لبلاده ويريد استغلال ذلك بالسفر برًا.. الحقيقة لم أمانع الفكرة فقد كنتُ في قمة سعادتي حينها برفقته، خصوصًا أنني لم تسبق لي زيارة تايلاند من قبل..

وقد كان ذلك، حزمنا أمتعتنا وغادرنا جوًا..

وصلنا إلى تايلاند بعد رحلة ليست طويلة وشعرتُ كما لو أن علاقتي مع لقمان قد بدأت تأخذ منحنى أكثر إيجابيًا، وكذلك علاقته مع ابني.. يبدو أنه قد فَهِمَ شخصيتي؛ وعليه قد بدأ يتعامل معي بحثًا عن راحتي معه..

استلطاف ملحوظ تصاعد بيننا، وتزايَد مع مرور الوقت، وتلك طبيعة البشر كما أخبرتني أختي بعلاقتها مع زوجها هناك، ولكن ما لفت نظري هو انشغاله الدائم بهاتفه النقال!

ولم أستطع تجاهل العدد الكبير لشرائح الاتصال التي بحوزته، كان يُغيرها بعد كل اتصال طويل وغالبًا ما ينتهي بالشجار بلغته غير المفهومة!!

وفي كل مرة سألته عن السبب.. كان يبتسم ويُجيب بأن طبيعة عمله ومنافسة التجار في مجاله..

تتطلب منه الحذر.. الحقيقة لم أفهم مقصده..

لكن نشوة العلاقة وحجم الراحة الذي كنتُ أشعر بها حينها جعلني أتفهم طبيعة عمله كما أخبرني، وسأعتاد -حتمًا- على ذلك مع الوقت، فالعِشرة أحيانًا وحدها -حتى وإن كانت قصيرة- تصنع قبولًا غير مفهومًا، لكننا نتقبله ببساطة، وهنا تكمن روعة العلاقات بين البشر.. خصوصًا في الزواج..

والحقيقة كنتُ سعيدة بذلك، فلأول مرة أشعر بأن الحياة قد بدأت تبتسم لي..

لقد أعجبتني العاصمة بانكوك على الرغم من كثرة الزحام فيها..

وأعجبت كذلك صغيري اللطيف بتال، كان يشير إلى ما يلفت نظره كله، ويطلب مني النظر إليه ثم يسألني بطريقته اللطيفة باحثاً عن الإجابة، هو لم يتعلم لغة الإشارة، لكننا كنا نفهم بعضنا البعض بلغتنا الخاصة؛ لذلك كان يحب أن يستمع إليّ كثيرًا وكنتُ أحبُ أن أحدّثه..

الازدحام في الشوارع يكاد يكون أساسيًا في الحياة هناك..

ما شدني هو كثرة الباعة الذين يفترشون الأرصفة، والمأكولات الغريبة، والروائح التي تفوح باستمرار وكأنها رائحة الهواء الأصلية ولا غيرها، لاحظت تنقل السكان المحليين واستبسالهم في البحث عن قوتهم في هذه الحياة، ولا يمكنكَ أن تتجاهلَ هناك كثرة الدراجات النارية، واستخدام السياح بمختلف ألوانهم للعربات الصغيرة ثلاثية العجلات..

مررنا بالكثير من ذلك حتى وصلنا إلى وجهتنا أخيرًا، لقد وصلنا إلى شقة في حي سكني مكتظ بالبشر!

كان أمرًا غريبًا اختيار لقمان لمثل هذا المكان؛ فاستفسرت منه عن طبيعة المكان، لكنه أخبرني أنها لصديق قديم له، فعدت وسألته بامتعاض:

- لماذا لا نسكن في فندق هادئ؟

لكنه أجابني بأن هذا الموقع قريب جدًا من محيط أعماله، وأن طبيعة عمله ورغبته في اختصار الوقت وسهولة اللقاء بزملائه التجار تمكّنه من إنجاز ما يريد بعيدًا عن زحمة الشوارع وضياع

الوقت..

عمل! .. ألم يُخبرني أن هذه الرحلة هي لاستكمال شهر العسل!

لم أستوقفه عند هذه الإجابة، فالإرهاق الذي كنتُ عليه أنا وابني لا يتطلب المزيد من النقاشات..

والحقيقة أن الشقة كانت نظيفة ومرتبة، وبها كل شيء من المستلزمات والمواد الغذائية؛

لذلك لم أمانع أو أجادل، ولكن ما ضايقني ومنذ الليلة الأولى.. هو غيابه الطويل والمتكرر عني!

كان يُغلق عليّ الباب أنا وابني بحجة الاحتياطات الأمنية بسبب كثافة البشر في هذا الحي..

ووضعهم المادي الذي قد يُعرضني للسرقة أو الاعتداء غير المتوقع..

وفي كل ليلة يوجد بها كان يبعد ابني في الغرفة المجاورة حتى يختلي بي ليتفرغ للممارسة معي بأسلوب لم أكن أتقبله؛ لكنني كنتُ أتجاوب معه مجبرة، للأسف تلك التفاصيل كانت تؤثر عليّ نفسيًا في كل مرة..

شعرتُ أنه بذلك كان يصنع بتصرفاته فجوة دون قصد؛ يتسلل من خلالها الكثير من الاستياء وفقدان الشغف، تأكدتُ بعد تبدّل المشاعر لديّ أن الرغبة تنقص تلقائيًا، كلما ازداد الجفاء!

لكنه لم يكن يهمه ذلك، كان ما يهمه هو متعته فقط..

كرر ذلك حتى شعرتُ كما لو أن هذه فائدتي الوحيدة معه في كل ليلة يحضر فيها..

وللأسف لم أتوقع أن رحلتي إلى بانكوك ستختصر في شقة مغلقة!

قد تتقبل الواقع؛ لكنه قد يصدمكَ برفضه لكَ..

هذا الرفض -غالبًا- لا يحمل لكَ الخيرا!

بقيتُ على هذا الحال قرابة الأسبوع..

في تلك الليلة أذكر أنني كنتُ نائمة بجانب ابني، أعتقد أن الساعة حينها كانت تشير إلى الثانية فجرًا.. لقد اعتدتُ صخب الشوارع والذي لا تعترف بحق النوم، وبات تداخل ضوضائها مع أحلامي أمرًا يضحكني، لم يكن خُلقًا ما عشته تلك الليلة؛ بل السقطة التي رمت بي من سراب الحلم إلى صلابة صخور الحقيقة.. تسللت الأصوات إلى إدراكي الغارق.. أصوات أقرب من المعتاد!

لكنني لم أتعامل معها بجدية؛ فتجاهلت ذلك حتى لا أفقد لذة النوم، ويا ليتني لم أفعل!

فبعد لحظات، يد ضخمة تقطع طريق الهواء، وُضعت على فمي..

فتحتْ عيني لأقصى اتساع كمَن يريد التنفس بهما.. باغتني الوجه الذي يطل على دهشتي، والحقيقة لم أفهم المنظر، وجدتُ بالقرب مني وجه رجل غريب متخفي الملامح، وبنظرات تفيض بالقسوة، ولم يكن الوجه الوحيد في تلك الليلة المرعبة.. فقد حررتُ نظري لاكتشف وجود اثنين آخرين يقفان خلفه، للأسف لم أُمنح وقتًا لأستوعب ما يجري.. ثلاثة رجال ملثمون اقتحموا الشقة ودخلوا الغرفة بهدوء وتمكنوا من السيطرة عليّ، وتقييد يديّ وقدميّ وعصب عينيّ وإغلاق فمي بقطعة قماش غليظة أفسدت جميع محاولاتي في الصراخ!

دبّ الرعب في جميع أنحاء جسمي.. تمنيتُ لو كان كابوسًا؛ لكن ما حدث لم يكن سوى حقيقة مرعبة لا يستوعبها عقل فتاة مثلي.. حاولتُ المقاومة بلا فائدة..

كنتُ أصرخ باسم ابني تارة وأصرخ باسم زوجي لقمان تارة أخرى، ولكن بلا أية جدوى..

كانوا يتحدثون مع بعضهم بلغة لاتينية على ما أعتقد، مَن يتحكم بهم ويُصدر الأوامر كانوا ينادونه باسم "خوليو" .. صرخ على أحدهم، فحملني مباشرة وكأنه ينفذ توجيهاته..

حملني بكل سهولة على ظهره وبدأ بنزول السلالم وكنتُ أشعر بذلك.. حتى أدخلوني سيارة كانت تنتظرنا أمام البناية.. ثم وضعوا ابني بجانبي، وهذا ما جعلني أطمئن نسبيًا وأتجاهل حجم المصيبة بعض الشيء، ومن ثم غادروا بنا إلى المجهول!

تمنيتُ لو أنني كنتُ قد حملتُ معي هاتفي النقال، لكنهم لم يتركوا لي فرصة..

إنني مختطفة! أدركتُ هذا وأنا أهتز على وقع السيارة ككيس بلا قيمة، يتم نقله من مخزن إلى آخر دون أن يملك ترف معرفة مصيره..

بعد قرابة الساعة، توقفت الاهتزازات، وكنّا قد وصلنا كما بدا لي..

حملني أحدهم دون مقاومة وهو يعبر بي مكانًا يفوح برائحة الرطوبة المقززة..

ثم سمعتُ صوت مفتاح يدور في قفل معدني، صرير باب مزعج، ثم قُذفت بلا تردد لأستقر على أرض صلبة اهتزت عظامي من بعد الارتطام بها، حرر عينيّ وفمي من قيدهما، وتركني مقيدة اليدين ثم استدار وأغلق الباب!

سمعت بعدها همسات تندفع من خلفي، فاستدرت بنصف جسمي، وقد كانت المفاجأة..

غرفة ضيقة ممتلئة بالفتيات متعددات الجنسيات، قرابة ثلاثين فتاة في مكان ضيق بنافذة مرتفعة تطل على المجهول، ينظرن إليّ وملامحهن تختصر جميع أشكال المعاناة والعجز والألم..

أدركتُ عندها أنني شيء من بين هذه الأشياء، لقد تمكّن الخوف مني وبأقصى مراحله الممكنة..

فوجدتُ نفسي أزحف نحو الباب وأنا في قمة فزعي، كنتُ أصرخ وأسألهم عن ابني بتال..

اضرب الباب برأسي ولا أتوقف عن الصراخ، أكاد أجن، هل أنا أحلم؟ أم أنني أعيش كابوسًا ثقيلًا لكنه على أرض الواقع؟

كنتُ أبكي وأنا أردد اسم ابني، حتى دخل أحدهم غاضبًا وأخبرني بأنه في الغرفة المجاورة برفقة بعض الأطفال، لكنني أكملتُ الصراخ العالي بلا توقف وحاولت الزحف نحو الخارج..

فلم يكن منه إلا أن سحبني من شعري ثم قام بمعالجة مشكلة صوتي المرتفع بلطمة على منتصف فمي فأخفته كليًا كما لو أنه قد ضغط على زر كتم الصوت في جهاز تحكم قد اقترن بحواسي..

جعلني أنزف قليلًا ولم أتمكن من مساعدة نفسي بسبب القيود المحكمة على يديّ وقدميّ..

ثم حذرني أن استمريتُ بهذا الإزعاج فأنه لا يضمن سلامة ابني،

فما كان مني إلا السكوت والاكتفاء بالبكاء والدعاء بأن يحفظه من الشرور كلها..

وبمجرد أن هدأت.. نظرت إلى السقف.. ويا ليتني لم أفعل!

أسوأ مخلوقات الأرض بالنسبة إليّ.. كانوا بانتظاري.. الوزغ..

وجدته يتزاحم بكثرة في زوايا الغرفة العلوية وبأحجام وألوان مختلفة!

يتحرك بعضها والبعض الآخر ساكناً كسكون السقف المتشقق.. هذا المخلوق المقزز هو أكثر ما يرهبني، وينفض جسدي فور مشاهدته.. أشعر بتقلص مساماتي وتمددها..

قشعريرة تغتال كل أجزائي.. حتى هذه اللحظة لم أفهم أو أتوصل إلى فائدة وجوده في هذه الحياة..

تفاصيله لا تتقبلها النفس السوية.. ألوانه تصنع لك اللوعة الفورية.. وطريقة زحفه المخيفة تشعرك كما لو أنه يلامس جلدك.. أشعر برغبة التقيؤ كلما تواجدت بالمكان الذ يتواجد به..

العادة.. أغادر المكان فوراً من دون حتى التفكير بمحاولة القضاء عليه.. ولكن هذه المرة..

لا أملك أي مفر.. لذلك حاولت التجاهل، وأعلم أنني سأفشل في ذلك.. ولكنه كان الخيار الوحيد..

فطبيعة هذه البلدان الآسيوية يجعل وجود هذا الكائن أمراً مألوفاً وليس ملفتاً..

ولكنني لم أعتد عليه منذ أن وطأت قدمي أرض الغربة للأسف..

وتلك هي المعاناة التي تلاحقني كلما التقيت معهم..

بعد مرور قرابة الساعتين أشرقت الشمس..

دخل أحدهم وهو يحمل سطلًا ممتلئًا بالأرز الأبيض، ثم بدأ يأخذ بيده حفنة منه ويدخلها عنوة إلى فم كل فتاة، وجدتُ أن جميعهن يتقبلن ذلك؛ بل إنهن يستمتعن بهذه اللحظة..

كن تحاولن بالاستفادة من أكبر قدر من اللقمة حتى لا يسقط بعضًا منها على الأرض..

ومَن تسقط منها الفتات تنحني بجسمها لتلتقط ذلك بلسانها دون مقاومة القيود الملتفة حول أطرافها!

كان منظرًا غريبًا ومقززًا كشف لي حجم الواقع في هذه الغرفة المتسخة كليًا..

لاحظت إحدى الفتيات بجانبي نظراتي المندهشة تجاه الموقف؛ فوجدتها قد مالت برأسها إليّ ثم همست لي بلغتها الإنجليزية الركيكة:

- وجبة واحدة باليوم فقط، استفيدي منها حتى لا يسحقكِ الجوع هنا.

نظرت إليّ ثم واصلت حديثها:

- أطماني... ابنكِ بخير برفقة الكثير من الأطفال.

أخبرتُها وأنا ألملم دموعي والخوف يتحكم في وجهي البالي:

- أنا قلقة عليه... ابني يختلف عنهم... لا يمكنه الحديث أبدًا.

شعرتُ أنها قد تعاطفت معي بعد حديثي عن حالة ابني بتال، فطلبت مني طلبًا يختصر العجز كله الذي كنا جميعنا عليه، حين قالت:

- كوني قوية من أجله.

على الرغم من بساطة كلماتها، إلا أن حديثها كان مطمئنًا لي بشكل ملموس جدًا..

علمتُ حينها أن لهذه الوجبة قيمة حقيقية، أقل ما يمكن وصفها بأنها طوق النجاة..

وهي وحدها مَن تبقيهن على قيد الحياة حتى هذه اللحظة..

بقيت أراقب المشهد حتى حان دوري، قام ذلك الوغد بغرس اللقمة الكبيرة في فمي غرسًا بشكل مؤلم ومستفز، ووجدتُ نفسي أحاول مضغ الأرز المعجون، لم يكن يحتوي على الملح..

كان طعمه سيئ لكنه يلغي فكرة الجوع مؤقتًا، وهذا هو المغزى من هذه الوجبة..

ولم أكن أستوعب أنني كنتُ أعيش هذه الساعات كلها دون ابني، فلم أعتد على ذلك منذ ولادته..

ولكن البشاعة الحقيقية التي كنتُ أتقيأ بسببها مرارًا..

هي تلك الفقرة اليومية التي كانت مهمة جدًا على الرغم من قذارتها..

كانوا يُخرجون كل خمس فتيات لقضاء حاجتهن سويًا في دورة مياه تنضح بالقذارة..

مرة واحدة فقط باليوم.. وعقوبة التعذيب كانت تنتظر مَن تفقد السيطرة على نفسها وتقضي حاجتها في غرفة التجمع..

الكل كان يُعاني في الحالتين، لحظة إدخال الطعام، أو لحظة إخراجه!

الوضع لا يُطاق بشكل لا يمكن وصفه، الكثير من المواقف المقززة..

والتي جعلتني أفكر بأن هذه التفاصيل قد تكون الطريقة المثلى لصناعة العبيد في هذا العالم البشع..

ولا أسهل من فعل ذلك بعد حرمان الإنسان من حاجاته الأساسية الطبيعية..

تفعل ذلك معه حتى تصل به إلى تلك المرحلة التي تجعله فيها متقبلًا لواقعه المخزي كي يحصل على جزء من حقوقه مهما بلغ سوء الطريقة المستخدمة في ذلك، وهذا ما لمسته في هذه الغرفة التعيسة!

فعلى سبيل المثال؛ أذكر تلك الساعة التي كنتُ فيها مشتتة البال..

أفكر فيما كان ينتظرني وينتظر ابني المبعَد عني، مرّ بجانبي شيء لم أفهم طبيعته..

مرّ مروًا خاطفًا أربكني فجأة، لم أستوعب ذلك حتى أدركت جيدًا أنه فأر ملطخ بالقاذورات!

صرخت صرخة أرعبت كل مَن بالمكان.

كنتُ انتظر منهن المساعدة، لكنني لم أجد سوى الغضب والرد بصراخ أعلى يفوق نبرة صرختي..

طلبن مني عدم تَكرار هذا التصرف المزعج..

لم أفهم ردة فعلهن إطلاقًا، حتى دخل أحدهم ووضع صحنًا حديديًا كبيرًا بوسطه حساء لزج غير مفهوم شكلًا أو حتى رائحة، والتي كانت نتنة جدًا، وبينما هجمن بسرعة لتناول هذه الوجبة..

تدخلت بعض الفئران تشاركهن الطعام، لم أستوعب ما تشاهده عيناي، بدت جميع الفتيات متأقلمات مع الوضع غير المستساغ، وكأنه واقع طبيعي، فلم تتقزز إحداهن أو حتى تمتعض على الأقل..

علمت حينها أن ردة فعلي لم تكن محقة وليست في محلها أبدًا..

كيف لمن عاش هنا جزءًا من عمره أن يتحرر من هذه اللعنة التي تطغى على هذا المكان؟

قسوة الظروف بدت ظاهرة على تجاعيد وجوههم.. أكاد لا أصدق تلك التفاصيل التي قضيتها في شهر العسل!

كنتُ أفكر في لقمان، ماذا سيفعل عندما يكتشف اختفائي من الشقة؟

حتمًا لم يتأخر وسيخبر الشرطة، وهذا ما كنتُ أراهن عليه مع مرور الوقت..

في اليوم الثالث على ما أذكر، حدثَ أمر لم يكن متوقعًا؛

لم يحضروا لنا وجبة الطعام الوحيدة على غير العادة، بدأ الجوع يلامس أمعاء الجميع..

لكن لا تجرؤ إحدانا على السؤال..

ولكن تكرر ذلك لليوم التالي، والأصعب أنه تكرر لليوم الذي بعده أيضًا..

هنا تمكّن الجوع فعليًا مني ومن جميع الفتيات، فتح أحدهم الباب وهو يتمتم ببعض الكلمات..

علمت من نبرته أنه خوليو.. وعلمت فيما بعد من بعض الفتيات أنه كولومبي الجنسية..

ويتمتع بقوة الشخصية؛ ممتلئ الجسم، شعره ناعم يغطي رقبته القصيرة من الخلف، بشع الملامح..

كان يتجول متخطيًا أقدامنا الممددة وهو يمسك بيده موزة بعد أن تناول نصفها..

رائحتها اللذيذة كانت تفوح، وتتلاعب بحواسنا بشكل مثير، كدت أجن وأنا أراقبه..

يتجول بيننا وسلاحه على كتفه ونظراته تختصر الإجرام كله، وقبل أن يخرج.. نظر إلينا..

ثم رمى بقشر الموزة في منتصف الغرفة، وقبل أن تلامس قشرتها أرضية المكان..

هجمن عليها وتقاتلن مع بعضهن من أجل الظفر بها، فانقسمت بلمح

البصر إلى ثلاثة أقسام وكسب مَن كسب جزءًا منها، والتهم مَن كان سعيد الحظ قسمه من قشر الموز..

كان ذلك على وقع نظراتي، لم أندفع كما فعلن فقد كان لديّ بعض الوقت قبل الوصول إلى الحضيض..

الحقيقة لم أستوعب بشاعة المشهد، فقد تعاملوا مع قشرة الموزة كما لو أنها وجبة..

كما لو كانت دجاجة مشوية كاملة، هل وصل بهن الحال إلى هذه المرحلة المزرية!

مرحلة كهذه لا يصل إليها البشر إلا بعد المرور بالكثير من المراحل العصيبة..

من حسن حظي أنني لم أكن معهن منذ البداية، ولكن السؤال الذي تشكل في داخلي،

وجعلني أستشعر معنى الرعب، هو هل سأصل إلى هذه المرحلة نفسها قريبًا؟

كان الوقت يمضي ببطء غير مفهوم..

أذكر تلك اللحظة التي كنّا فيها وسط السكون والذي كان يسيطر علينا..

عندما اخترق محيطنا فجأة صوت صراخ مرعب من خلف إحدى الغرف الجانبية..

كان أحدهم يعذب أطفالًا لا حول لهم ولا قوة!

علمت حينها أن قسم الأطفال المحتجزين يقع بمحاذاة قسمنا، والصوت يمكنه أن يصل إلينا متى ما كان مرتفعًا، لا يفصل بيننا سوى جدار إسمنتي، الكل ارتبك، أصبحنا ننظر إلى بعضنا البعض مرعوبات.. صوت توسلاتهم، وصوت بكائهم الذي يكاد يختفي من قوة النواح..

حاولتُ النهوض من مكاني رغمًا عن سيطرة القيود على أطرافي، وبدأت بمناداة ابني بتال لعل وعسى أن يسمعني؛ حتى أطمئن عليه، ولكن للأسف حتى وإن سمعني.. فإنه لن يتمكن من الرد عليّ عن طريق الصوت الذي يفتقده، ولم أسمعه يومًا منذ ولادته، ولكن لم أكن أملك حلًا سوى ذلك؛

لهذا لم أتوقف عن المناداة بهيستريا مزعجة لمن هم حولي كلهم، ولم أهدأ حتى توقف الاعتداء..

وخفَّ صوت البكاء بالتدريج..

جلستُ حينها وأنا أبكي والقهر كله يعتصر قلبي عصرًا، فلا أبشع من أن تكون عاجزًا أمام معاناة من يهمكَ أمره، وقد كنتُ كذلك حينها.. اقتربت مني تلك الفتاة مجددًا ودفعت بقدمها حجرًا صغيرًا حتى أصبح بالقرب مني.. ثم همست لي بهدوء قائلة:

- خذي هذا الحجر واضربيه بإناء الألمنيوم وأطلبي من ابنكِ في حال وصول الصوت إليه أن يحاول الرد بصوت مماثل كإشارة منه إلى أنه يسمع صوت ندائكِ، حينها ستتأكدين أنه -لا يزال- بخير.

فكرة عبقرية على الرغم من بساطتها لم تخطر على بالي قَط؛ لذلك

التقطث الحجر بصعوبة فورًا وأنا ارتبك لهفة لعل وعسى، وقمث بتطبيق ما أخبرتني به، وطلبث من بتال بأن يجيبني بصوت ضرب أي شيء في حال سماعي.. فعلت ذلك مرة، وكررته مرة أخرى، ولكن للأسف لا إجابة..

كررث ذلك للمرة الثالثة، ثم نظرت إلى الفتاة وأنا محبطة والدموع توشك على النزول من عينيّ..

كان يخالجني شعور إحباط يمتزج بالرعب تجاه مصير ابني الذي لا أعلم عن حالته منذ خطفنا واحتجازنا..

حتى انتقل ذلك الشعور السيئ إلى ملامح الفتاة بجانبي..

ولكن بدأث أتخيل شيئًا كما لو أنه وهمًا.. رفعت رأسي نحو الفتاة.. كانت تبتسم لي..

لقد ظهر صوت ضعيف أشبه بالخيال؛ صوت ضرب شيء ما يصل إلى مسامعنا..

طلبت مني الفتاة معاودة الضرب والمناداة فورًا؛ قمث بذلك وأنا أصرخ بقوة مخاطبة ابني بتال قائلة:

- إن كنتَ تسمع صوت ندائي زُدّ عليّ بأيّ صوت ضرب تُصدره بأيّة قطعة صلبة تجدها بالقرب منك.

فأجابني بصوت ضرب حديدي، أخيرًا، وهنا لاحظث أن السعادة قد لامست وجوه جميع الفتيات معي.. وأنا الوحيدة التي شعرت أنها قد لامست قلبي، طلبث منه أن يصدر صوت ضربتين متتاليتين في حال أن وضعه وصحته على ما يرام، وقد قام بذلك؛ ضربتين

متتاليتين كما طلبت منه..

اقتربتُ من الفتاة صاحبة فكرة المراسلة الذكية، ولولا القيود لكنتُ حضنتُها..

لكنني استبدلتُ ذلك بقبلات متتالية على خدها، كان ذلك وسط ضحكات الجميع..

لقد نسينَ البؤس والجوع للحظات بسبب هذا الموقف الذي تفاعلن معه من خلال ما تبقت لهن من مشاعر لم تمُت بَعد في هذا المكان البائس واللعين..

كنتُ كل يوم أكرر التواصل مع ابني بتال بالطريقة نفسها وبمعدل لا يقل عن ثلاث مرات..

المهم أن نُطمئن بعضنا البعض بأننا -لا نزال- بخير، والأهم أننا -ما زلنا- على قيد الحياة..

للأسف لقد سكنت في ذاكرتي مشاهد لا يمكنني نسيانها في تلك المرحلة؛ مشاهد تعكس بشاعة البشر تجاه بعضهم البعض، فكيف للمخلوق البشري أن يستخدم قوته في إذلال مخلوق آخر من بني فصيلته!

يوصله إلى أقصى مراحل الوهن والإهانة، ويلغي مفهوم الكرامة من هُويته، هذا كله من أجل أن يروضه ويجعله كسلعة رخيصة يشكلها كما يريد حتى يبيعها بثمن مرتفع يرضي رغباته الشريرة!

فلا أنسى ذلك المشهد بالفترة التي قطعوا فيها عنّا الطعام..

كنت أنظرُ إلى إحداهن وهي تمسك بإناء معدني منبعج بشكل لا يصلح للاستخدام..

كانت تُدخل فيه وجهها كاملًا، وهي تحاول لعق أكبر قدر ممكن من بقايا الدسم المجمد القديم جدًا والذي يكاد يكون معدومًا من الوجود.. لكنها تفعل ذلك لعل وعسى أن تستشعر طعمًا ما..

والأكثر حزنًا هي تلك النظرات لـمَن كنّ بجانبها، وكأنهن يتوسلن بنظراتهن أن تترك لهن شيئًا يلعقونه من بعدها!

يااااه... ما أتعس ذلك المشهد الذى عجز عقلى على استيعاب تفاصيله!

في مرة من المرات البشعة أيضًا..

فتح أحدهم الباب وقذف بفتاة إلى حبسنا المكتظ، فعل ذلك بعد أن ركلها بقدمه بأقصى ما يملك من قوة وأغلق الباب، منظر الكدمات التي كانت على وجهها لا يمكن شرحه، قد أختصره لكم بأن من حول عينيها كانتا بقعتان كبيرتان لونهما أزرق..

يبدو أنها قد تعرضت إلى ضربٍ مبرحٍ لا يُصدّق، لكنها كانت عنيدة بشكل لافت..

كانت تحاول أن تنهض بعد سقوطها، ولكن بلا أية فائدة، فلم تكن تملك القوة الكافية لفعل ذلك..

تصرخ بلا توقف، تحاول أن تنتفض وحدها، وتتحدث بلغة لا أفهمها..

بدا لي أنها من دولة لاتينية، لم تقبل واقعها الذي أدركت بشاعته بوصولها إلى هذا المكان المخيف..

فلكل شخص هنا قصته الخاصة، وظروفه التي أوصلته إلى هنا، لم تحتمل العذاب..

كان عنادها سببًا في بؤسها، أردتُ أن أقتربَ منها كي أواسيها قليلًا..

لكن الجميع حذروني من فعل ذلك..

نهضتُ وأنا على وشك أن أتجاهل تحذيراتهم؛ فوجدت قدم مَن كانت بجانبي تلتف من بين قدميّ وتسحبني ثم تعيدني إلى مكاني وهي تهمس بالقرب من أذني قائلة:

- من تتجرأ لفعل ذلك ستلقى عقابها نفسه وأكثر.

- ولكن حالتها مزرية... هل قتلوا الرحمة في دواخلكم؟

- مَن يذق العذاب مرة، لا يفكر في تَكرار تذوقه مرة أخرى.

- ولكن...

- فكري في ابنكِ؛ فانتقامهم قد يصل إليه.

وبينما كنتُ أستقبل حديثها المرعب، كان هناك صوت يشبه خرير الماء، التفتُ نحو الفتاة المعذبة وقد وجدتها تتبول وأنفاسها تكاد أن تكسر ضلوع صدرها من قوة انبعاثها المتكررا!

منظر محزن ومقزز لم أحتمل تفاصيله.. خصوصًا أنه كان يحدث وسط صمت الجميع..

وحديث نظراتهم التي كانت تقول كل شيء، احتل الصمت جسمها كله قبل أن يحتل فمها الذي تعب من الصراخ، وبقيت ساكنة تحاول الصمود من دون أن تصدر أية حركة لافتة..

لقد فقدت قواها، واكتفيث أنا بالتعاطف معها عن بُعد لا أكثر..

وبعد مرور أكثر من أسبوع من هذه المعاناة..

لم أتوقف عن تَكرار طريقتي بالتواصل مع ابني بتال عن طريق ضرب الحجر، ولكن للأسف!

تَكرار هذا التصرف كان قد لفت انتباه بعض المسلحين؛ فدخل أحدهم غاضبًا وكأنه قد تلقَّى أمرًا من جماعته كي يتولى أمري.. قام بسحبي بكلّ عنف، وفكّ قيد معصمي الأيمن ثم أدخل الصفد

من بين قضبان النافذة المرتفعة بعض الشيء.. قبل أن يعيده إلى معصمي ويقوم بإغلاقه مجددًا..

ثم تركني وهو يهدد جميع الفتيات قائلًا:

- ستنام هذه الليلة وهي واقفة، العقوبة تنتظر مَن تخطأ محلها.

ثم غادر وتركني أعيش صدمة واقعي الذي أوصلت نفسي إليه..

للأسف كان ارتفاع النافذة يجبرني بالوقوف على أطراف قدماي، كنتُ أضع حِملي كله على أصابعي حتى لا يتضرر معصميّ بالنزول.. أو حتى أؤخر تضررهما.. فالنتيجة المتوقعة هي الرضوخ..

ولكني لم أكن أعلم لأي وقت سأواصل الصمود والتحمل للبقاء بهذه الوضعية.

لن أسهب في وصف تفاصيل الألم الذي كان يتزايد شيئًا فشيئًا..

ويكفي أن أخبركم أنني قد أكملت قرابة 24 ساعة وأنا واقفة ورافعة اليدين..

كانت أطرافي تتنمل بشكل متزايد، حتى أوشكت على فقد الإحساس بها..

لم أتناول الطعام ولا الماء.. كنتُ أصرخ على مرات متقطعة لعل أحد المسلحين يتعاطف معي ويحررني من هذه العقوبة التي لا تُطاق.. للأسف بدأت قدامى تلامسان الأرض، وبدأ معصماى يتجرحا بسبب ذلك، كانت لديّ رغبة كبيرة في النوم رغم الألم، فلم أذق طعمه منذ ساعات طويلة..

ولكن، في معمعة هذه المعاناة.. انتبهتُ إلى صوت كنتُ قد افتقدتُه منذ أمس!

صوت ضرب الحجر.. شعرتُ أن نبرته كانت قريبة بشكل لا يمكن تجاهله..

نظرت إلى الفتاة التي كانت تجلس بجانبي، ووجدتُها تشاركني الدهشة نفسها..

هناك أمر ما غير مفهوم، فقد وجدتُ صوت الضرب قد أقترب أكثر من قبل..

لا أصدق، هل يُعقل أن بتال يقف خلف الجدار مباشرة؟!

نهضت الفتاة ووجدتُها تنحني أسفل النافذة ذات القضبان

الحديدية.. وتطلب مني أن أصعد على ظهرها حتى ارتفع أكثر واكتشف هوية الطارق بالخارج، والحقيقة لم أتردد ولو لوهلة..

لقد حاولتُ جاهدة دون أن أتسبب لها في أيّ ألم، وغالبًا لم أكن سأنجح..

لكنني حاولتُ أن أصعد برفق مصطنع، وقد كان بعد ثلاث محاولات، ولم أكن أتمكن من ذلك لولا تعاطف إحدى الفتيات معنا والتي قامت بمساعدتي؛ وذلك بدفعي من الأسفل بواسطة كتفها الأيمن..

وقد نجحتُ في الصعود، لامس وجهي شعاع ضوء الشمس والذي افتقده كل من بالغرفة..

ثم مددتُ ذراعيّ بصعوبة حتى أدخلهما من بين القضبان بأكبر قدر ممكن من دون أن أجرح نفسي.. بسبب تشبث حدة الأصفاد حول المعصمين المتألمين، وانتظرتُ أن يلامسها الفرج، وقد كان ذلك..

حينها أمسك أحدهم يديّ وأجهش بالبكاء، لقد كان ابني بتال!

ولم أملك سوى مبادلته البكاء، يدا حبيبي اللتان -حتمًا- لن أُخطئ ملمسهما..

يمكنني أن أعدد خطوط باطن كفيه بلا مبالغة، لا أعلم كيف تمكن الوصول إلى هنا..

يبدو أنه قد افتقدني بعد توقفي عن مخاطبته عن طريق صوت ضرب الحجر..

كنتُ أشهق من البكاء، فصعوبة الموقف تتحطم أمامها جميع محاولات الصمود مهما طال أمدها..

بقينا على هذا الحال قرابة العشر دقائق..

أتحسس يديّ بتال وكأنني أتحسس نعومة السحاب والتي تأبى أن تتأثر من خشونة ارتطامها بقمم الجبال الصخرية التي لا تعرف طريق الرحمة إلى عمقها.. حاولتُ أن أتحدثَ معه ببعض العبارات المهدّئة لاضطرابه حينها، ووعدتُه بأنني لن أتخلى عنه.. وأنها مسألة وقت وسنخرج جميعًا من هنا..

ولم أُكمل حديثي حتى اقتحم أحدهم الباب!

ابتعدت الفتاة من تحتي مرعوبة؛ فنزلت بقوة إلى الأسفل بشكل مفاجئ..

ففلتت يداي من يدا ابني بتال للأسف، وتألمت ألمًا قويًا أضر معصمي، لقد اكتشف الرجل الأمر..

فجُنّ جنونه وصرخ مخاطبًا لزملائه المسلحين، وفي وقت قياسي، سحب أحدهم بتال من الخارج وهو يضربه، كنتُ أستمع إلى بكائه وأنا عاجزة، أتقطع من الداخل ولا أملك سوى التوسل بأن يرحمونه..

لكن ذلك الحقير الذي اقتحم الغرفة، لم يستجب أو يتعاطف، بل قام بضربي ثلاث ضربات متتالية على قدميّ ثم بصق عليّ وغادر غاضبًا..

كنتُ أتألم جدًا وسط تعاطف بعض الفتيات من حولي، ولكن

التعاطف هنا لا يصنع الحلول ولا يغير الواقع للأسف..

مرت الساعات حتى غابت الشمس..

وبقيت على هذا الحال الصعب حتى حضرت نقطة التحول من دون تمهيد!

ففي منتصف الليل، فتحوا الباب بقوة قد أفزعتنا جميعًا، فكّ أحدهم قيودي وحررني من سيطرة القضبان.. ثم أعاد إحكامها بشكلها الاعتيادي ثم أمرونا جميعًا بالنهوض والخروج فورًا!

كانوا يفعلون ذلك وهم يضربوننا على رؤوسنا بأطراف أسلحتهم الحديدية.. يصاحب ذلك جعجعة أصواتهم المرتفعة وملامحهم البشعة كبشاعة أفعالهم.. منظر مخيف لا تحتمله فتيات بسيطات مثلنا مسلوبات الإرادة..

حاولتُ أن أسأل أحدهم عن ابني؛ لكنه صرخ عليّ بلغته التي لا أجيدها..

ومن ثم ضربني بطرف سلاحه على كتفي من الخلف بطريقة كادت أن تفقدني أنفاسي..

فما كان مني إلا أن أتقدم مجبرة معهن، أقاوم ألم سيطرة القيود..

كان بانتظارنا ثلاث حافلات صغيرة، جعلوا كل مجموعة في حافلة برفقة ثلاثة أشخاص ملثمين..

شخص مسلح يركب في الخلف بالإضافة إلى السائق ومعاونه المسلح أيضًا، وكنتُ أنا مع المجموعة التي حشروها في الحافلة

الثالثة والأخيرة..

كانت الحافلة الأكبر، والسبب أنها كانت مخصصة للأطفال وأمهاتهم..

التقيتُ مع بتال وكأنه لقاء بعد سنين عجاف من الغياب، احتضنا بعضنا البعض والدموع تنهمر من عينيّ اللتين لم تتذوقا طعم النوم جيدًا منذ غيابه عني، لم يكن لقاءً حميميًا لي وحدي؛

بل كان لغيري من الأمهات برفقة أطفالهن المتضررين مثل ابني..

كان بتال يرتجف قليلًا، فلا فرصة للحديث لديه، لم يكن عجز لسانه بسبب إعاقته هو السبب الوحيد الذي يمنعه من الحديث؛ بل حتى بشاعة الظرف الذي وجد نفسه يعيشه دون مقدمات..

لم يكن ظرفًا سهلًا على طفل في عمره؛ لذلك حاولتُ تدفئته وتهدئته وتخفيف حجم المصيبة التي كنّا نخوضها سويًا..

بعد أن أغلقت أبواب الحافلات، حانت لحظة التحرك، أمرهم قائدهم الكولومبي خوليو بالانطلاق فورًا قبل أن يودعهم، ولقد انطلقنا جميعًا إلى وجهة غير معلومة، والأكيد أنها ليست سعيدة!

وبعد انقضاء وقت طويل من قطع الطريق..

وصلنا إلى سور لقصر راقٍ في منطقة ريفية على ما أعتقد، ولكنها قليلة المنازل..

يبدو أنها مزرعة، أو هكذا كانت طبيعة المنازل في تلك البقعة، فُتحت البوابة الكبيرة بأيدي حراس مسلحين، ومن ثَمّ تم إدخال

الحافلات الثلاث..

كان الفناء واسعًا جدًا والتفاصيل الفاخرة لافتة كثيرًا، أنا وجميع الفتيات كنّا نراقب المشهد ويغمرنا الذهول والخوف، أمرونا بالنزول فورًا، وكالعادة فرقونا عن أطفالنا، انتزعوه من بين ذراعيّ..

حاولتُ إقناع أحدهم بمرافقة بتال لكنه أشار بسلاحه نحوه وأخبرني أنه وجميع الأطفال سيكونون بخير في حال امتثلنا إلى تعليماتهم دون عناد؛ فما كان منّا إلا الرضوخ لقوتهم القاهرة..

نظرتُ إلى بتال وأنا أتصنع الابتسامة، وأخبرتُه بصوت مرتفع بأن كل شيء سيكون على ما يرام..

لوّحتُ له مبتسمة وكأني أستمع إلى صوت زوجِه يخبرني.. بألا أخاف..

كان يمشي برفقة الأطفال وهو ينظر إليّ والصمت يتحكم في تعابير وجهه..

هذا التصنع كان يفوق طاقتي الطبيعية، ولا أعلم متى ستنفد قدرتي على التحمل..

وللأسف هكذا نُضحّي لأجل مَن يهمنا أمرهم، فكم من مرةً قد اصطنعنا فيها الابتسامة من أجلهم!

في الوقت الذي كانت فيه قلوبنا تبكي بحسرة، لم يكن سوى مظهرنا ما يخبرهم أننا بخير، لكننا في الداخل نتمنى لو استمعوا إلى عويلنا ولو لمرة..

استمرت رحلتنا المجهولة..

اقتادونا جميعًا بعد ذلك على شكل طابور وأدخلونا تباعًا إلى حمام كبيرا

وسط دهشتنا وعدم فهمنا لما يحدث، حررونا من القيود جميعًا، ثم قدموا لنا خمسة أسطل من الصابون..

ولكل واحدة منا منشفة كبيرة وحذاء بلاستيكي، وطلبوا منا الاستحمام فورًا خلال نصف ساعة..

قبل أن يغلقوا الباب بإحكام..

لم نتردد إطلاقًا، فقد اندفعنا جميعًا لمعانقة المياه التي افتقدناها كثيرًا، أنا لم أستحم لبعض الأيام..

لكن بقية الفتيات اللواتي حُبسن لمدة أطول كان وضعهن مزريًا بشكل ملحوظ؛

لذلك وجدتهن يعانقن المياه المنهمرة من صنابير المياه العلوية كما لو أنهن يعانقن عودة الروح إلى الحياة.. وبعد فراغنا لففنا أجسامنا المنهكة بالمناشف التي قدموها لنا، وبقينا ننتظر ما سيحدث بعد ذلك..

بعد قرابة الساعة..

دخل شخص أنيق يرتدي بدلة جميلة، ويضع نظارة شمسية سوداء، وبرفقته بعض المسلحين..

بدأ يتجول بيننا، ينظر إلى أجسامنا نظرات مستفزة، كانت تستبيح

وتخترق جميع تفاصيلنا..

يفعل ذلك وأنا وبعض الفتيات نحاول حضن المناشف بقوة، والتي كانت تسترنا بعض الشيء حتى لا نفقد السيطرة عليها، وبعد جولتين من النظرات وبعض اللمس والتمحيص الخارجي..

بدأ يشير بيده إلى مَن أقنعه مظهرها..

اختار من بين قرابة الثلاثين فتاة، خمس عشرة فقط، وأمر الباقيات بالابتعاد إلى الجهة اليسرى..

ومن سوء حظي أنني كنت ضمن اختياراته؛ بل إنني من أوائل الفتيات المختارات!

جمالي اللافت كان تذكرة عبور كعادته..

وبعد هذه التصفية غادر ذلك الرجل بعد أن أعطي التعليمات للمسلحين..

والذين طلبوا منّا بعد ذلك التقدم للخروج والتوجه إلى إحدى الغرف الكبيرة..

أدخلونا ولم نستوعب ما شاهدته أعيننا؛ صف طويل من الملابس الأنيقة المعلقة، الكثير من الكراسي التي كانت تنتظرنا خلف المرايا المرتبة بشكلٍ متتالٍ، الإضاءات، أصناف المساحيق التجميلية التي رُتبت على الطاولات، والعديد من العاملات اللواتي يرتدين أطقمًا موحدة كانوا بانتظارنا!

كل عاملة اختارت ثلاث فتيات وطلبت منهن مرافقتها، وبدأ

الجميع في اختيار الملابس..

وقد كنتُ أراقب مندهشة غير مدركة لما يحدث كله، نظرت إليّ العاملة وهي مطبقة الملامح كما لو أنها فاقدة للشعور، ثم فتشت وسط الكثير من الأطقم عن قطعة تليق بي..

وقد كان ذلك، اختارت لي فستانًا سماوي اللون، كان قصيرًا ومفتوحًا من الأعلى..

طلبت مني أن أرتديه ومن ثم أتوجه نحو جهة وضع المساحيق، لكنني حاولتُ أن أشرح لها صعوبة قبولي لمثل هذه التصاميم المثيرة، ولم أُكمل حديثي حتى وجدتها تضغط على زر جانبي أصدر صوتًا غريبًا..

فُتح الباب ودخل رجلان مسلحان، كانا يتوجهان نحوي!

أشارت لهما العاملة بعينيها نحو الفستان الذي كنتُ أحمله، وفهما طبيعة المشكلة، لم يحتاجا إلى الكثير من الوقت، رفعا سلاحيهما نحو رأسي، وتحدّث أحدهم بإنجليزيته الركيكة مُهدّدًا:

- كوني مطيعة... ونفذي دون نقاش أو سؤال، وإلّا فثمن إزعاجكِ هو رصاصة واحدة رخيصة ستفقدكِ ابنكِ المعاق العمر كله.

لم أستوعب ما سمعته أذناي!

وجدتُ نفسي أرتجف وأنا أطلب منهما الهدوء ووعدتهما بأني سأقبل بكل شيء على ألا يصيب بتال أي ضرر، ثم غادرا وتركاني وأنا في قمة رعبي، كان ذلك أمام نظرات الجميع، لقد أرسلوا رسالة مرعبة لكلّ مَن تسوّل لها نفسها في التردد أو الاعتراض، وقد كنتُ أنا

الضحية في هذا الدرس!

نظرتُ إلى العاملة الحقيرة، فوجدتُ ملامحها كما كانت، صامتة بشكل مستفز..

وضعت بين يديّ حذاءً ذا كعب متوسط الارتفاع، أبيض اللون، وأشارت لي بالتوجه إلى المنطقة الخلفية..

فلم يكن مني سوى التوجه إلى حيث أشارت وقمتُ بتبديل ملابسي تنفيذًا لأوامرهم..

وقد كان ذلك، نظرت إلى مظهري في المرآة، كان رائعًا جدًا، كما لو أنه قد فُصّل من أجلي..

وكان الكعب الأبيض قد أضاف إثارة لافتة لا يمكن تجاهلها.. شاهدت العاملة ذلك..

هنا تحركت ملامحها، ووجدتها تبتسم ابتسامة ليست مريحة..

يبدو أنها أُعجبت بمظهري إلى درجة أن تعابيرها الميتة قد عادت إلى الحياة..

ذهبت للجلوس على الكرسي المخصص للتجميل وأنا أشعر بقبح المكان ومَن فيه..

نظرتُ إلى وجهي في المرآة المضيئة، لم أشاهده بهذا الوضع من قبل، الأرق بدا واضحًا عليّ..

السواد يتربع أسفل عينيّ.. كان الحزن تترجمه ملامحي البالية، ولا أعلم أن كانت ستخفيه الألوان أم لا.. الجميع مشغولون بما انشغلت

به نفسه؛ باختيار الملابس المناسبة والتبديل..

هناك مَن بدأت في رسم الحواجب، وهناك مَن كانت منسجمة بوضع أحمر الشفاه..

وهناك مَن أوشكت على الانتهاء من كل شيء..

اقتربت مني عاملة وبدأت من دون تمهيد بممارسة عملها.. كانت منهمكة في اختيار ما تراه مناسبًا لوجهي المغصوب، وكنتُ مشغولة البال كما لو أنني معزولة عن الواقع، أفكر في ابني بتال وكيف وضعه برفقة الأطفال، وأرسل الدعوات إلى السماء لأن يكون بخير..

وبعد دقائق، انتهت العاملة من كل شيء، والنتيجة امرأة فاتنة كالعادة..

هكذا كنتُ وما زلتُ، وقد لاحظ ذلك جميع مَن بالمكان..

ملامحي العربية كانت واضحة وفارقة من بين جميع الفتيات، رسمة العينين، حجم الأنف وانسيابه..

وطبيعة الشفتين، وطول الرقبة، وحدّة آخر الفكين، تفاصيل لا يمكن أن تمررها النظرات مروزًا عابرًا..

وبعد أن انتهينا جميعًا من التجهيزات، طلبوا منّا الوقوف كالطابور، قبل أن يدخل المسلحين ويقودونا إلى مكان آخر لا نعلم ماذا يحمل لنا من مفاجآت!

المال سلاح...

تكمن خطورته عندما تتمكن منه يد المتنفذ المنزوع من الإنسانية!

قطعنا مسافة طويلة عبر الممرات الرخامية بذلك القصر الفخم..

كان صوت الصدى لطقطقة أحذية الكعوب التي كنا نرتديها قد بدا واضحًا طوال الوقت..

بدأتُ أشعر بالألم في قدميّ، ولكن لا أملك سوى مواصلة السير..

المهم، وصلنا إلى حيث المكان المقصود.. أدخلونا إلى صالة كبيرة.. كان بانتظارنا أربعة رجال كبار في السن يجلسون خلف طاولة فاخرة يعتليها الكثير من الأطعمة وكؤوس الخمر الزجاجية..

جميعهم من الجنسية الآسيوية، من الصين ربما أو من تايلاند، تجاعيد وجوههم مخيفة..

طلب المسلحون منّا الوقوف صفًا واحدًا أمامهم، أحد الجالسين وضع السيجار الضخم في طرف فمه..

ثم بدأ بالتصفيق وهو يقهقه وكأنه فرِح بما شاهد، كان يتحدث مع مَن يجالسهم بلغته التايلاندية..

ويشرح له بيديه وهو يُشير إلينا، ونظراتهم كانت نظرات لا يمكن وصفها سوى أنها شهوانية..

وفي أقل من عشر دقائق، نهضوا من على كراسيهم المزخرفة ثم صافحوا بعضهم البعض، وهم يضحكون كما لو أنهم قد اتفقوا على أمر ما!

أمر أحدهم بإحضار حقيبتين، ووضعها على الطاولة.. ثم قام بفتحها..

كان بداخلها الكثير والكثير من المال، نفث الدخان الكثيف من فمه المجعد وهو مبتهج..

ثم أمر المسلحين بإخراجنا، وقد كان ذلك..

قادونا إلى حافلة خاصة كانت معتمة الزجاج كليًا باللون الأسود من الخارج..

وأجبرونا على الصعود ثم صعدوا معنا وأمروا السائق بالتحرك..

وبمجرد أن تحركت الحافلة، كدت أن أفقد عقلي.. جن جنوني.. طلبت منهم التوقف فورًا وإحضار ابني بتال قبل المغادرة، صرخ أحدهم طالبًا مني الجلوس..

لكنني تجاهلته وتوجهث نحو السائق كي أجبره على التوقف، وقبل أن أصل إليه..

سحب أحد المسلحين شعري بقوته كلها وأعادني إلى الخلف بعنف حتى ارتطم ظهري بإحدى الفتيات..

سقطت إلى الأسفل وأنا أحاول استعادة أنفاسي.. قبل أن يسحبني من شعري مجددًا ويضرب طرف جبيني بطرف سلاحه، وجعلني أتألم ألمًا لا يُحتمل.. نزفث قليلًا، ونظرث إلى بقية الفتيات..

وجدتهن خانعات وكأنهن مستسلمات لواقعهن ولا يهمهن وضع الأطفال، ولكني لم أستسلم لواقعي..

فحاولث النهوض وأنا أتوسل إليهم ليتوقفوا.. لكن أحدهم قام باستخدام ورقة الابتزاز والتي طالما كنث أضعف أمامها كعادتي،

حين قال لي:

- سيلحقون بنا في الغد، عدم انضباطكِ سيحرمكِ رؤيته مجددًا.

لا أصدق أنني قد رضخت لتهديده..

وجدتُ نفسي أعود إلى مقعدي وأنا أتلمس مواضع الألم الذي تسببوا لي فيه..

لأول مرة تبغُد المسافة بيني وبين بتال، وسط عجزي أمام جبروت قوتهم ورعب أسلحتهم التي لا تفارق أياديهم..

بعد غروب الشمس بقليل.. وصلنا إلى أحد الفنادق الفاخرة..

أدخلونا من خلال أحد المداخل الخلفية، وفرقونا بمعدل كل ثلاث فتيات في غرفة..

كنتُ برفقة فتاتين في غرفة صغيرة تحتوي على ثلاثة شرر وثلاجة صغيرة وتلفاز..

واللافت أنها بلا أية نوافذ، ثم أغلقوا الباب علينا بالقفل من الخارج!

سألتُ الفتاتين عن سبب وجودنا هنا؛ فأجابتني إحداهما وهي غاضبة جدًا من إزعاجي حين قالت:

- كفاكِ بلاهةً أيتها المزعجة... لا تتظاهرين بالبراءة بهذا الشكل المستفز.

- براءة! أقسم لكما إنني لا أعلم عن مصيرنا المنتظر... أريد ابني فقط.

تداخلت الفتاة الأخرى وطلبت منا الهدوء قبل أن تشرح لي قائلة:

- يبدو أنكِ لا تعلمين عما يحدث من حولكِ، نحن هنا لإشباع غرائزهم.

- غرائزهم!

- لا تقلقي... سيكون ذلك مقابل الكثير من المال.

ثم عادت الفتاة الأولى لتضيف وهي تسخر قائلة:

- أهنالك أجمل من المتعة التي تجلب المال معها؟!

لا أصدق، إن كان ما سمعته وفهمته من حديثها صحيحًا، فأنا موعودة مع الجحيم..

كنتُ أنتظر أن يخبروني عن إجبارنا على القيام بعرض للأزياء، أو تقديم المشروبات في ملهى على أقل تقدير، لكن ما سمعته لا يمكن استيعابه!

أيقنت حينها أنني قد وقعت في قبضة عصابة مسلحة تتاجر في الدعارة(2)

هنا شعرتُ بأن جمالي لم يكن نعمة لي؛ بل كان نقمة عليّ بما تعنيه الكلمة!

حالة انهيار كنتُ أعيشها من الداخل.. حتى وجدتُ نفسي أذرف الدموع..

ففي مثل هذه المواقف الصعبة، من الخطأ أن تقاوم دموعكَ..

خصوصًا إن كانت على أمرٍ يستحق.. فهي وحدها القادرة على تطهير قلوبنا من بشاعة الحزن الذي لا يعرف العطف..

لم يشغلني أمر النجاة من هذا المكان بقدر ما كان يشغلني ابني بتال..

كنت أضرب الباب لأطلب منهم الخروج.. وسط غضب الفتاتين وطلبهما مني الهدوء حتى لا نتعرض للعقاب، ولكني لم أكترث لهما فما يشغلني كان أهم من مجرد الخوف من عقوبة..

حينها سمعت صوت القفل يتحرك من الخارج، عدتُ إلى الوراء..

فتحه أحدهم وأشار إلى إحدانا وطلب منها مرافقته، وبكل طواعية نهضت وتوجهت ورافقته من دون أن تعترض، ثم أغلق الباب مجددًا، يبدو أنها ستبدأ العمل مباشرة.. لن أنتظر حتى يحين دوري للذهاب إلى المقصلة، يجب عليّ أن أتصرف..

وبعد قرابة الثلاث ساعات، عادت الفتاة إلينا وهي في وضع غير جيد..

أدخلها أحدهم وهو يدفعها دفعًا.. كانت تترنح، تقدمنا إليها لمساعدتها قبل أن تقع..

ساعدناها للجلوس على سريرها المخصص، وبقينا ننظر إليها والصدمة تتوشح الوجوه..

لا أصدق، تساءلت بيني وبين نفسي وأنا مرتعبة مما أشاهده..

كيف يصل الشر بالكائن البشري إلى مرحلة مقززة يعطي فيها

لنفسه الحق بأن يستبيح جسم غيره؟

يتجبر بقوته مستغلًا ضعف غيره حتى يبيع شرفه وكأنه سلعة يُعاد تدويرها للاستفادة منها مِرارًا وتَكرارًا من قبل الراغب في الاستمتاع!

حقارة لا يمكن فهمها أو الإجابة عليها، وهنا يكمن الشر المتخفي في زوح الإنسان..

تجده يستيقظ فور إحساسه بالقوة وتمكنه من السلطة!

مرّ الوقت والجميع على أعصابه.. لا أذكر كم الساعة..

لكننا كنا في أواخر ساعات الفجر كما بدا لي..

حينها حدث أمر غير متوقع؛ صوت عراك بالخارج لم يدم طويلًا، حتى فتح أحدهم الباب بعد العديد من المحاولات؛ كانا رجلان ملثمان!

سأل أحدهم عن اسمي، فأشارت إحدى الفتاتين إليّ.. كنتُ أرتعد رعبًا..

اعتقدتُ أنني على وشك التورط في أفعالهم القذرة.. لكنهما فاجأونا بأمر غير متوقع..

طلبا منا سرعة الخروج جميعًا، كان التردد حاضرًا لكن الشخص نفسه واصل حديثه موضحًا وهو على عَجل من أمره بأنهما يفعلان ذلك من أجل إنقاذنا!

الحقيقة لم نكن نملك وقتًا كافيًا للتفكير ولا حتى للمزيد من التردد..

فما كان مني ومنهما إلا أن نتبعهما مسرعات.. خرجنا ووجدنا رجلين مسلحين ممددين على الأرض من بعد الاعتداء، واصلنا المسير هاربين من خلال أحد الممرات الخلفية للفندق..

الكثير من الأنابيب والأسلاك والأجهزة التالفة.. لكن لا مجال للتدقيق أو فَهم طبيعة الممر..

أكملنا مسرعين حتى وصلنا إلى أحد الأبواب الحديدية..

ما أبشع تلك الحالة التي كنتُ عليها وأنا أواصل التقدم، فقد كنتُ أهرب مع مجهولين إلى وجهة مجهولة..

أبحث عن النجاة من واقع مجهول، من خلال الهرب إلى مستقبل مجهول أيضًا..

فُتح الباب ووجدنا حافلة صغيرة بانتظارنا.. ركبنا وغادرنا..

أكاد لا أصدق، لقد تحررنا من قبضة أولئك الحقراء، ولكن هذا لا يعني لي شيئًا طالما ما زلتُ بعيدة عن ابني بتال، كانت الأبواب مغلقة بإحكام والحافلة تنطلق بسرعة قصوى..

حاولتُ التواصل مع السائق ومعاونه، لكن هناك حاجز بلاستيكي سميك يعزل ما بيننا..

للأسف لم أستطع إيصال صوتي لهما..

وبعد قرابة الساعة من التنقل بواسطة الحافلة المجهولة.. توقفنا..

وأخرجونا وطلبوا منا الصعود إلى حافلة أخرى، طلبوا من الفتاتين الصعود إلى المقاعد الخلفية..

ثم طلبوا مني الصعود وحدي إلى المقعد الأمامي.. لم أفهم سبب ذلك لكن لا وقت للتأخير..

فتح لي أحدهم الباب كي أصعد، ولكن كدتُ أن أفقد قواي بلا مبالغة!

هبوط حاد قد حلّ عليّ مرة واحدة قبل أن يعود للارتفاع بشكل لم أفهمه..

كان هناك مَن يبتسم وهو ينظر إليّ؛ لقد كان ابني بتال بانتظاري، يجلس بجانب زوجي لقمان!

اندفعتُ نحوه بلهفة وضممته إلى صدري وأنا أبكي بقوة غير مصدقة لذلك..

ثم حضنت زوجي لقمان الذي كان سعيدًا جدًا بعودتي..

طلب مني التماسك ثم انطلق بسرعة جنونية وابتعدنا إلى أقصى نقطة ممكنة..

أخبرني ونحن نواصل التقدم بالحافلة الصغيرة، أنه من خَطط لإنقاذي عبر أولئك الملثمين مقابل الكثير من المال، وطوال الطريق كان يلوم نفسه كثيرًا بأنه السبب فيما حصل لنا..

وعندما سألته عن السبب، أخبرني أنه يجمعه مع الخاطفين بعض الأعمال وقد تأخر في سداد بعض الدفعات المالية لهم، فحاولوا الانتقام منه بخطف زوجته وابنها، لقد كنّا الضحيتين اللتين سيدفع لقمان من خلالنا ثمن تخلفه عن السداد لأولئك الأشرار؛ لذلك قرر أن ينتقم منهم بإنقاذنا..

ولكني سألته وأنا أحضن بتال الذي اشتقت إليه كثيرًا:

- ولكن يا لقمان بخصوص الفتاتين بالخلف... ما علاقتهما بنا؟

- أردت أن أنتقمَ من تلك العصابة بإنقاذهما، ذلك سيكبدهم المزيد من الخسائر.. عليهم اللعنة يستحقون ذلك.

وبعد الكثير من الأحاديث المتبادلة واللعب مع صغيري بتال، توقف لقمان بالقرب من سيارة أخرى وطلب منا الانتظار، ترجل من مقعده وتوجه إلى الخلف وبقيتُ أراقبه عبر المرآة الجانبية..

التقى برَجلين واستلم منهما مبلغًا من المال ثم خبأه في جيبه وقادهما نحو الباب الخلفي وفتحه..

ثم طلب من الفتاتين النزول فورًا، ثم رافقتا الرجلين.. وعاد لقمان إلى مقعده قبل أن نغادر مجددًا من دونهما.. سألته عن ذلك الموقف المريب، لكنه أجابني إجابة مختصرة قائلًا:

- ستذهبان إلى مكان آمن لهما، وهذا هو المهم.

كان صارمًا في إجابته ويرفض أية محاولة أخرى للاستفسار؛ لذلك احترمتُ رغبته وتفرغتُ لتعويض بتال عن كل لحظة حنان كان قد حُرم منها أثناء غيابي القسري عنه..

ولكن لفت نظري المسافة الطويلة التي كنا قد قطعناها.. سألته عن وجهتنا، وعن احتمالية عثور أفراد العصابة علينا مجددًا؛ فأجابني باستحالة ذلك.. حيث واصل إجابته قائلًا:

- لأننا وببساطة سنعبر الحدود نحو بلادي... نحو ميانمار.

كنّا نبتعدُ عن زحامِ المدن شيئًا فشيئًا..

لمستُ هذا من تلاشي تتابع المباني وازدياد المسطحات الخضراء..

كان الطريق طويلًا؛ لكنه لا يعني لي شيئًا طالما ابني بجانبي، وبمجرد أن اقتربنا من الحدود..

توقفنا على جانب الطريق بين بعض الأشجار المنتشرة في هذه البقعة من الأراضي الواسعة..

ولقرابة النصف ساعة حتى وصلت سيارة حمراء اللون، يقودها رجلٌ بدينٌ تُغطّي أغلب جسمه الوشوم الغريبة، طلب لقمان مني ومن ابني النزول فورًا، ثم وضعنا في المقاعد الخلفية..

قبل أن يعود إلى سيارته ويحمل ثلاث حقائب ويضعها في مؤخرة السيارة الحمراء..

ثم صعد إلى المِقعد الأمامي، وأمر السائق بالتحرك..

هذا كلّه يحدثُ أمام عينيّ دون أن أفهمَ، وما لفت نظري أن السائق لم يتوجّه من الطريق الممهد الواضح؛

بل انحرفَ عن المسار، وبدأ يسلك مساراتٍ غير معبّدة..

كانت السيارة تهتز على الطرقات المتعرجة؛ مما أثار غثياني، سألتُ لقمان عمّا يحدث؛

فأخبرني وهو مشغول بتصفح هاتفه:

- لن يرحمونا فور اكتشاف أمر تهريبكما بالإضافة إلى الفتاتين، أريد حمايتكما من احتمالية ملاحقة العصابة، ثقي بي يا حبيبتي.

- لماذا لا نسلك الطريق المعبّد؟

- لأن خروجنا من هذه البلاد لا أريده أن يكون رسميًا.

- ماذا تقصد؟

- تلك العصابة لها نفوذ، وقد يبحثون عن أسمائنا في أنظمة السفر؛ لذلك سنخرج من الحدود بطريقة غير نظامية برفقة خبرة هذا السائق، وحينها سيعتقد الجميع أننا -ما زلنا- نتجول في أرجاء تايلاند وسيستمرون في البحث بلا أية فائدة.

طريقة تفكيره ليست تقليدية بالنسبة لي..

والحقيقة لم أمانع على الرغم من خطورة ما يريد فعله، فبمجرد أن يطرأ على بالي احتمالية لحاق العصابة بي وبابني، يدب الرعب في أنحاء جسمي مباشرة، وأجدني اندفع مع أية محاولة للابتعاد عن محيطهم قدر الإمكان، حتى وإن كانت غير مشروعة، وإن نجحنا في المرور كما خطط زوجي لقمان؛ فإن العصابة ستنشغل بالبحث في المكان الخطأ، وهذا ما سيضمن الأمان لي ولأبني بتال..

لن أطيلَ عليكم، فبعض التفاصيل لا قيمة لها..

الخبر السعيد الذي تنتظرون معرفته، هو أننا قد نجحنا في عبور الحدود بعد عدة توقفات بالطريق..

وذلك عبر علاقات ذلك السائق السمين..

لقد مررنا من خلال ثغرات في إحدى المناطق الواقعة على الحدود التايلاندية الميانمارية..

دون أن نتعرض لمضايقات، كان هناك مَن يُأمِّن لنا المرور مقابل الكثير من المال..

حينها أيقنت قيمة لقمان في حياتي، لقد صنع لي معروفًا لا يُنسى، ولا أعتقد أنني سأتمكن من رد ذلك الجميل الكبير مهما قدمت له طوال فترة بقائي على قيد الحياة..

بعد رحلة طويلة ومتعبة بما تعنيه الكلمة كله..

لم يسبق لي بأن خضت مثلها قَط، وصلنا إلى داخل ميانمار..

ولم يكن هناك اختلاف كبير بين طبيعتها وطبيعة تايلاند، حتى الوجوه تتشابه بعض الشيء..

مجرد اختلافات بسيطة كما بدا لي، دخلنا إلى مدينة تُسمَّى مياوادي(3)..

علمتُ ذلك من اللوحات الإرشادية..

كانت جميلة في تفاصيلها.. لم تكن ضخمة أو تشبه العاصمة التايلاندية أو الماليزية؛

بل كانت أبسط بكثير على الرغم من حداثتها بعض الشيء..

مررنا بالكثير من المباني السكنية غير المرتفعة.. وأجمل ما كان فيها هي تصاميم بعض المعابد البوذية..

كانت لافتة وكأنها صروح ذات هيبة، لا أعلم لماذا تشكل بداخلي هذا الشعور..

لكن دقة تصميمها وروعته كان لها سببًا رئيسيًا في ذلك على ما

يبدو..

ونحن نتجول كان الليل حينها في أوله، لاحظت وجود الكثير من الكازينوهات التي يبدو أنها تستحوذ على اهتمامات الكثير هناك، فللدنيا نصيبها لديهم على ما يبدو..

المهم.. أخيرًا وصلنا إلى منزل لقمان؛ كان منزلًا جميلًا، معزولًا وحده وتبعد عنه العديد من المنازل الأخرى..

يسود أغلب المكان الكثير من الأشجار والطرق الترابية، كانت منطقة هادئة ورائعة بشكل يبهج النفس..

مللث صخب المدن؛ لذلك كنت سعيدة بهذه التفاصيل، نزلنا وأنزل الحقائب من السيارة ثم ودّع صديقه السائق، ثم أخذنا في جولة سريعة في بيته..

كنا نتأمل جمال التفاصيل البسيطة وتناسق الألوان، حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة..

كانت تحمل مفاجأة سارة لصغيري بتال؛ زوجي لقمان كان قد خصص غرفة خاصة لابني الوحيد..

كانت غرفة بسيطة وجميلة، تحتوي على سرير صغير وبعض الألعاب، وأكثر ما أسعدنى هى تلك السعادة التى شاهدتها فى عينى بتال..

نظرت إلى لقمان، وبادرت بحضنه حضنًا يعبّر عما بداخلي كله من شكر تجاه ما قدمه لي ولابني..

فراحة بتال هي ما أريده كله من هذه الحياة الصعبة التي لم ترحمني يومًا، ولو لم يقدم لي شيئًا غير صناعة ابتسامة ابني لكفى..

ولكن، يؤسفني أن أخبركم أنه ومنذ دخولنا إلى هذا المنزل لم نخرج منه قَط!

يبدو أنني سأكرر خوض التفاصيل التي كنت عليها في شقة صديقه بالعاصمة التايلاندية..

كنتُ أرغبُ في أن أستكشف الحياة في ميانمار، لكن لقمان كان يرفض ذلك بحجة حمايتي..

كان يخبرني أن هذا الوضع لن يدوم طويلًا.. كان ينتظر أن يتأكد من عدم مطاردتنا من قِبل أي أشخاص بالخارج، وهذا العذر كنت أتقبله ووحده ما يجعلني أحاول التأقلم مع الواقع..

فلستُ مستعدة للعودة إلى جحيم تلك العصابة التي لا ترحم، ولكن المزعج بالأمر..

أننا أكملنا الشهر السادس ولم يسمح لي ولا لابني حتى بمجرد التجول في أقرب ساحة أو حديقة عامة من المنزل.. كنتُ أريد أن يلتحق ابني بالمدرسة المناسبة لحالته الصحية؛ ولكن لقمان لم يكن يكترث، وفي كل مرة أُصر فيها على طلباتي، كان يغضب ويحمّلني المسؤولية في حال وقوع أي ضرر غير متوقع!

بدا لي وكأنه يستغل نقطة ضعفي تجاه سلامة ابني وخوفي المستمر عليه..

والمستفز بالأمر أنه عاد لعادته التي كان يفعلها في بانكوك، كان

يخرج ويتركنا وحدنا..

ويصل به الأمر إلى أن يغيب لثلاثة أيام متتالية..

بعد أن يُأمّن لنا الكثير من الأطعمة والاحتياجات الأساسية..

بدأ النفور يغزو مزاجي بسبب إهماله، وطوال تلك الفترة التي عشناها كأسيرين في المنزل الذي بدأتُ أكره تفاصيله بسبب تَكرار مشاهدتي لها منذ وصولي، كنت أعيش الكثير من المتغيرات المزعجة والتي لا أستسيغها؛ حيث كان يستضيف أصدقاءه بالأيام التي يعود فيها إلينا، يسهر معهم بحجة العمل..

كانوا من جنسيته نفسها على ما أعتقد، أشكالهم المريبة لا توحي بالخير أبدًا..

ما كان لافتًا لي هي تلك الحقائب التي كان يستلمها منهم..

لمحت إحداها ذات مرة، وكانت مليئة بالأموال!

ما طبيعة هذه التجارة التي تجلب لزوجي هذه الدولارات كلها؟

كان ذلك أمرًا محل شك بالنسبة لي.. لكن لا فائدة من سؤاله، فأسرار عمله لا يسمح لأي أحد بالاطلاع عليها كعادته، وما استفزني وجعلني عدوانية بعض الشيء معه؛ هي تلك المرة من المرات

التي حضر فيها رجلان برفقة زوجتيهما إلى المنزل؛ فطلب مني لقمان حينها أن أتأنق كي أجلس بجانبه في تلك الليلة، لكنني رفضتُ رفضًا قاطعًا..

خصوصًا أن تلك الجلسة المشبوهة لا تخلو من المشروبات

الروحية، وتلك الأجواء لم أعتد عليها ولا أتقبلها أبدًا، وسبق وأن أخبرته بذلك ووعدني بتفهم ذلك، لكن ردة فعله لم تكن طبيعية..

يبدو أن الشراب قد جعله عدوانيًا في تلك الليلة على غير عادته معي..

كان يصرخ عليّ ويتحدث بلغته الأم ولم أكن أفهم منها شيئًا سوى أن نبرة صوته وتعابير وجهه كانتا توحيان إليّ بأنه قد كان في ذروة غضبه؛ لذلك انسحبت بهدوء وتوجهت إلى غرفة بتال..

وبقيتُ بجانبه، لم أستوعب سرعة التغيير التي حلت على واقع لقمان.. لم أعد أفهمه..

هل هو شخص طيب يريد حياة طيبة معي، أم أن سهراته وعمله المجهول أولوية لا يمكنه الاستغناء عنها؟

مللتُ هذا الواقع؛ لذلك اضطررتُ إلى مصارحته في يوم من الأيام..

بعد أن اخترت الوقت المناسب للقيام بذلك، ولكنني لم أجد سوى رجلًا عنيدًا؛

بل عبيطًا إن جاز التعبير.. كان يتحجج بالعمل وأن ما يقوم به من صميم عمله للتقرب من بعض الشخصيات، وأخبرني عن حاجته لي بالوقوف معه في مثل هذه المناسبات؛

لكنني أخبرته أن ما يطلبه لن يجده عندي، والغريب والمجهد في الأمر أنه لم يكن يمل من تكرار طلبه في كل ليلة يقيم فيها إحدى سهراته في منزله.. كان يهديني بعض الملابس المثيرة والأحذية

الرائعة..

وأضطر إلى قبولها دون أن أستخدمها، وكان ذلك يغضبه؛ فأصبحت علاقتنا مضطربة جدًا وغير مستقرة؛

حتى إنني شاهدتُه في إحدى المرات برفقة فتاة في وضعية لا تليق!

شاهدتُ ذلك مصادفة بينما كنتُ أحاول العبور من الممر الذي يمر خلف الصالة التي كان يسهر فيها برفقة أصدقائه، للأسف لم أحسب حساب هذا التغيير المفاجئ واللاأخلاقي..

لم أكن أتوقع أن استقرارنا في منزله هو بداية البعثرة لما كنتُ أعتقدُ أنه جميل كله، شعرتُ أنني تائهة..

لا أعلم كيف سأتصرف بعد هذه التطورات غير الجيدة كلها في علاقتي الزوجية هذه..

هل أتجاهل كل شيء وأبقى من أجل ابني؟ أم أطلب الانفصال وأعود إلى حياتي السابقة بما فيها من نقص كله؟

اللعنة على الحاجة في هذه الدنيا التي لا تعترف سوى بالقوي..

أيقنتُ حينها بعد هذه الحيرة التي كانت تتحكم في مزاجي اليومي أن الصراع الذي تعيش تحت ضغطه الرهيب، بسبب علاقةٍ غير سوية، يشبه محاولةَ السير حافيَ القدمين فوق صفيحٍ من الألمنيوم الساخن؛ قد تتمكن من التقدّم، لكنكَ حتمًا لن تستمتع بالرحلة!

وسط تسارع الأحداث غير المفهومة..

نكتشف أن هناك مرحلة لا تُشبه التي قبلها..

وللأسف -غالبًا ما- ندرك ذلك متأخرًا!

مرّت الأيامُ، وفي كل يوم تتعقد علاقتي مع لقمان أكثر من السابق؛

حتى أتت تلك الليلة التي لا تُنسى، ففي ليلة ماطرة، كانت الساعة تُشير إلى الثانية قبل الفجر..

ليلة غير مرتبة لكنها كانت نقطة التحول التي غيرت كل شيء!

عاد زوجي لقمان إلى المنزل في وقت متأخر بعد غياب استمر لثلاثة أيام..

ولكنه هذه المرة عاد وهو فاقد لوعيه، لقد كان في قمة ثمله كما بدا لي، كان في حالة مزرية..

لقد أكثر من الشرب في ذلك اليوم..

حاول أن يعتدي عليّ فور مشاهدته لي.. لكنني ابتعدتُ عنه بسرعة وحاولتُ إبعاد ابني عنه حتى لا تؤذيه المشاهد الغريبة وتؤذي براءته، تركنا وتوجّه إلى مكتبه الذي لا يسمح لأي أحد بالدخول إليه..

مكث قرابة الساعة قبل أن يخرج مترنحًا ممسكًا بكأس خمر!

لم أصدق أنه لم يكتف بَعد، خرج وهو غاضب ويتمتم بكلمات ليست مفهومة..

وقبل أن يواصل المشي فقدَ توازنه وارتطم ظهره على الحافة الخشبية للأريكة، وسقط منه الكأس وتهشم بصوت أفزع صغيري، كان يتألم قبل أن يغرق في نومه..

فأبعدتُ بتال مجددًا عن مشاهدة ذلك المنظر البائس وأدخلتُه إلى

غرفته وطلبث منه البقاء..

ثم عدثُ أراقب وضع لقمان عن بُعد، كان غائبًا تمامًا كالجثة الهامدة.

لمحتُ باب المكتب، كان مفتوحًا على غير العادة، قررتُ حينها أنني لن أضيع هذه الفرصة الذهبية والتي لم يسبق وأن حدثت، ولا أعتقد أنها ستتكرر، سأستغل غيابه عن الوعي في الدخول إلى المكتب..

لا بد أن أكتشف ما يخبئه هذا الرجل غريب الأطوار..

وبالفعل تأكدتُ من عمق نومه ومن ثَمّ توجهتُ إلى مكتبه بحذر شديد..

ولأول مرة دخلت إلى هذه الغرفة الغريبة، لم يكن أمامي الوقت الوفير لأتأمل جنباتها..

فيجب عليّ البحث فورًا دون أن أفسد المكان وفي وقت قصير، معادلة صعبة جدًا لكن ليس أمامي غير الامتثال إلى معاييرها إن أردت فَهم ما يدور حولي كله..

كانت الإضاءة خافتة بعض الشيء..

وعلى المكتب يوجد جهاز حاسوب محمول مغلق، وعلى يساره توجد ثلاث خزائن حديدية مخصصة للملفات، اخترت فورًا البحث في الخزنة الأولى، فتحتها برفق..

وجدتُ بداخلها ملفات خضراء متتالية، أخرجت أحدها وفتحته بهدوء..

ووجدت بداخله صورة فتاة، بحثت في الأوراق، وعلمت أنها أوكرانية الجنسية، عمرها في العشرينيات..

لا تملك عائلة، عملت كخادمة بالأجرة اليومية في بعض المطاعم البسيطة..

ومن ثَمّ تم نقلها بقيمة عشرين ألف دولار إلى تايلاند!

لكن ليس واضحًا إلى أية جهة قد تم نقلها؛ لذلك أعدت الملف وأخذت ملفًا آخر، واصلت البحث..

هذه المرة وجدت صورة لفتاة صينية، عمرها 19 عامًا.. تم بيعها إلى ملهى ليلي في بانكوك مقابل 12 ألف دولار!

بدأ الارتباك يتسلل إلى داخلي، فلم يكن عاديًا ما كنت أشاهده، سحبت ملفًا آخر، كان يخص فتاة عشرينية من إثيوبيا تم تسليمها إلى ملهى ليلي في منتجع بإحدى الجزر في تايلاند أيضًا..

واصلت التصفح في الملفات بشكل عشوائي..

وبحثت في الخزنتين الأخريين والتي كانتا تحتويان على الملفات نفسها، ولكن بألوان متنوعة، ووجدت عشرات وعشرات الفتيات الأجنبيات، وللأسف حتى من الجنسيات العربية..

هل يُعقل أن زوجي يتاجر في البشر؟

كما يفعل أفراد تلك العصابة التي كنت محتجزة لديهم وحررني من قبضتهم!

لا يمكن تجاهل الحقيقة، وجود هذه الملفات في مكتبه وما

تحتويه من مصير مظلم للكثير من الفتيات

لا معنى له سوى أنه وسيط جشع يبيع الفتيات لصالح ملاهي ليلية لا تعرف الرحمة..

حينها بدأ الخوف يحتضن قلبي حضنًا غير مرغوبًا فيه، وبدأ العرق يتشكل على جبيني..

هناك أمر لا يحمل الخير خلفه أبدًا، ولا يمكنني أن أحسن الظن تجاه ما شاهدتُه بأم عيني..

واصلتُ التصفح وهنا كانت الكارثة غير المتوقعة أبدًا..

ملف أزرق اللون يحمل صورتي واسمي ووجهة البيع المخصصة لي!

شعرتُ بزغللة في عينيّ ودوار مفاجئ لا أكاد أستوعبه، ضربات قلبي تتصاعد بشكل سريع جدًا..

كان جسمي كما لو أنه قد أُغرق بالماء فجأة، لا أصدق، ملف يخصني أنا!

واصلتُ التصفح بداخله فكانت الصدمة الأكبر، صورة ابني بالداخل!!

هل أنا ضحية مثلي كمثل الفتيات الموجودات بجميع هذه الملفات الملعونة؟

زوجي لقمان يريد بيعي؟ أنا وابني بتال، كيف؟ ولماذا؟

أيريد أن يبيع زوجته؟

ألم ينقذني منهم؟ لماذا يريد إعادة بيعي إذن مرة أخرى؟

وابل من الأسئلة لا يتوقف وجدته يهاجم عقلي ولم أجد له أجوبة مقنعة..

وبينما أواصل التصفح بملفي الخاص ظهر صوت غير متوقع من خلفي، التفتُ بسرعة إلى مصدر الصوت وأنا أشهق رعبًا وكأنها الشهقة الأخيرة..

لا أصدق ذلك، كدتُ أفقد عقلي وحتى روحي، لقد كان ابني بتال يقف في منتصف غرفة المكتب!

هبطت بجسمي إلى الأرض من حجم الرعب الذي حلّ عليّ بلا مقدمات..

وسحبته نحو صدري واحتضنته، ثم استجمعت قواي وطلبت منه الهدوء، ثم غادرت معه قبل أن تقع عيناي على قطعة الـ USB المُدخلة في جهاز الحاسوب المحمول الذي كان على سطح المكتب..

فما كان مني ودون تردد أو تفكير إلا وأن أخطفه وأخبأه بداخل جيبي ومن ثَمّ أواصل الخروج بكل هدوء برفقة بتال، مررتُ بجانب لقمان والذى كان -لا يزال- غارقًا فى وحل قذارته، ولأول مرة أنظر إلى ملامحه وأنا أرتعد رعبًا منه!

للأسف مشاعر البدايات خداعة، هي ما يحجب الرؤية الكاملة، لكن ظهور الاضطرابات..

يلفت النظر تجاه النتوء، وتكرارها مع الوقت تجعلها أكثر وضوحًا، وما يأتي بعد هذا كله، غالبًا هو القرار السليم..

عدتُ بابني إلى حجرته وأغلقتُ الباب وجلستُ معه على سريره الصغير وأنا أحاول استجماع طاقتي والتفكير بهدوء للوصول إلى أفضل قرار قد أتخذه بعد تلك الكارثة المرعبة التي اكتشفتها..

الموضوع لا يحتاج إلى فلسفة، باختصار كل علاقة غير واضحة التفاصيل تنتظرها نهاية غير واضحة النتائج!

ولكن يبدو أن خوفي على ابني جعلني لا أتخذ قرارًا سريعًا، أحتاج إلى اتخاذ أفضل قرار في أقصر وقت..

موقف صعب لا أصدق أنني كنتُ أعيش تفاصيله وحدي..

مرت قرابة الساعة..

واقتربت الساعة من الرابعة فجرًا، غلب النوم ابني المسكين بعدما شعر بالأمان في حضرتي..

تركته بهدوء وتسللتُ إلى الخارج لألقي نظرة على زوجي اللعين، يبدو أن نصيبي في الأزواج ليس جيدًا.. نزلتُ من الدرج بحذر، لا يزال غارقًا في غيبوبته النتنة، اقتربت منه شيئًا فشيئًا..

أريد أن أتأكد من أنفاسه على الأقل، بدا لي أنه يتنفس بشكل طبيعي بعض الشيء، ولكن وقعت عيناي على مفتاح سيارته ملقى على الأرض، يبدو أنه سقط منه بعدما رمى بنفسه بقوة على الأريكة.. فكرة جريئة وخطيرة تكونت في عقلي بسرعة الضوء!

الهرب أحيانًا هو أسهل طريق إلى النجاة، نعم لا حل أمامي، فالبقاء مع هذا المسخ بعد اكتشافي لأفعاله المقززة هو ضرب من الجنون، فأنا لا أبحث عن حفظ نفسي فقط، فزوجي وما أملكه كله فداء لابني بتال؛ هو قيمتي الحقيقية في هذه الحياة البشعة التي ترفض أن تبتسم لي ابتسامة صادقة كاملة ولو لمرة واحدة..

وبالفعل التقطت المفتاح بحذر، ثم توجهتُ إلى غرفتي لآخذ أهم المقتنيات والاحتياجات التي تخصني وتهمني، والأهم من هذا كله، المال كله الذي أملكه، ثم توجهت إلى غرفة ابني والتقطت بعض احتياجاته قبل أن أوقظه بهدوء ونغادر سويًا بكل هدوء، تاركين خلفنا لقمان في سباته..

ذلك الشخص الذي ظننت للأسف أنه الملاذ؛ لكنه كان بمثابة الأفعى التي تسكن الوكر الملطخ بدماء الأبرياء..

خرجنا بهدوء، ولكن على صخب انهمار المطر..

أدخلتُ ابني بسرعة إلى السيارة ثم وضعتُ الحقائب بالخلف، وتوجهتُ لصعود مركب السائق..

وأغلقت الأبواب ثم أدرتُ المحرك، وفي لمح البصر، حصل أمر غير متوقع وبشكل غير مفهوم!

تناثر الزجاج الجانبي للنافذة التي بجانب مقعدي بطريقة مرعبة!

ذلك الصوت العالي لتهشم الزجاج كما لو أنه اخترق أذني، فارتفع صوت بكاء ابني بشكل هيستيري مباشرة، قبل أن أفهم سبب ذلك،

كان لقمان يحمل معولًا ويحاول اقتحام السيارة علينا وهو يصرخ غاضبًا وقد أغرق جسمه المطرا!

لم أشاهده بذلك المنظر منذ أن عرفته، موقف لا يمكنني شرح تفاصيله المرعبة..

ومن دون مقدمات وجدتُ نفسي أدعس بقدمي وقوتي كلها على دواسة الوقود، فانطلقت السيارة بقوة..

وسقط لقمان هو ومعوله وابتعدنا عنه غير مصدقة لذلك..

واصلت القيادة بسرعة جنونية بلا توقف ويداي لا تكفان عن الارتجاف..

كنتُ أحاول تهدئة ابني الذي لم يكن مستوعبًا لهذا التحول المخيف في حياته وعن هذا الموقف الذي جمعني مع زوجي الذي بالكاد أصبح يتقبله..

وبعد قرابة الساعتين من القيادة المستمرة، توقفتُ بالقرب من محطة الوقود حتى التقت أنفاسي التي لم تهدأ منذ بداية تصاعدها، واحتضنتُ ابني بتال الذي كان مرعوبًا بشكل غير مسبوق للأسف..

توقفت الأمطار، وشعرتُ كما لو أن صخب تلك الليلة قد توقف بعض الشيء..

أذكر تلك اللحظة جيدًا، بقيت لحوالي خمس دقائق مشلولة التفكير والتدبير..

كنت كما لو أنني بلا إرادة، أشار إليّ بتال بيده..

وكأنه يريد أن يسألني عن الذي أصاب زوجي لقمان فجأة، الحقيقة.. لم أكن أملك الإجابة المناسبة لمرحلته العمرية، ولم يكن بمقدوري سوى تقبيل جبينه الصغير، لعل وعسى أن أضفي عليه بعض الأمان الذى كنتُ حينها أنا فى أمسّ الحاجة للعثور عليه..

أخرجت هاتفي المحمول، أردت الاتصال بأختي، لكني كنتُ مترددة جدًا..

فلن أجد الفائدة المرجوة منها خصوصًا أنها في بلد بعيد جدًا ككندا..

وبعد ثوانٍ معدودة من التفكير، ودون أن أشعر، وجدتُ نفسي أبحث عن رقم زميلي المقرب كريم؛

ذلك الرجل الصادق الذي طالما كان عونًا لي في وظيفتي بالمقهى، قمتُ بذلك، ولكن للأسف..

وجدتُ أن رصيد هاتفي قد انتهى؛ لذلك قررت النزول إلى المتجر الموجود بمحطة الوقود..

مسحتُ على رأس ابني وطلبتُ منه الانتظار ووعدته بأنني لن أتأخر، وقد كان ذلك..

قمتُ بشحن هاتفي والاتصال بزميلي كريم، وبعد ثلاث محاولات أجابني:

- أهلًا.

- أرجوك يا كريم ساعدني... حياتي وحياة ابني في خطر.

بهذه الكلمات ودون مقدمات كنتُ أحدّث كريم وأنا في قمة رعبي، لم يصدق أنني أخاطبه الآن..

ولأول مرة بعد زواجي ومغادرتي لماليزيا، أول اتصال بعد الابتعاد وبهذه الطريقة الدراماتيكية غير المتوقعة.. تعرّف على صوتي مباشرة.. وطلب مني الهدوء لمعرفة ما الذي حدث معي؛

فأخبرتُه بأن زوجي لم يكن سوى مجرم متخفي وتاجر في البشر ويريد بيعي أنا وابني..

لم يستوعب ما كنتُ أخبره عنه، سألني عن الطريقة المناسبة التي يمكنه أن ينقذني من خلالها..

والحقيقة ودون أن أشعر، طلبت منه الحضور..

أعلم أنني سأحمّله عناء السفر والتكاليف، ولكن لم يكن أمامي أن أثق بأحد..

فليس لي أية معارف في هذه البلاد، فالعجز الذي كنت عليه حينها وخوفي على ابني الوحيد..

جعلاني أتصرف وأقرر وأطلب أي شيء يمكنه أن يسهم لنا في النجاة..

أخبرتُه أنني سأبلغ الشرطة فور وصولي إلى أقرب مدينة من المحطة.. لكنه طلب مني الهدوء..

وعدم المجازفة بالذهاب إلى الشرطة حتى يصل ومن ثم يرافقني إليهم..

طلب مني البقاء في مكان آمن حتى يصل إليّ خلال يومين..

لا أعلم إن كان ما يقوله هو الصحيح، لكن بعض الأمان الذي وجدتُه في صوته..

جعلني أنفذ ما طلبه مني كله بلا أي تردد، ودعتُه وعدتُ إلى السيارة حيث ابني..

ولكن كانت الصدمة بانتظاري!

أكاد لا أصدق، لا أثر للسيارة إطلاقًا، وكأن الأرض قد ابتلعتها!!

هبوط حاد جعلني أهبط إلى الأرض، لم أتمالك نفسي، كنت أحاول الصراخ لكنني لم أتمكن من ذلك..

نهضتُ بصعوبة وبدأتُ أركض مثل المجنونة، أبحث بشكل عشوائي في منطقة لا يوجد فيها سوى مساحات شاسعة من الأرض والعشب المتقطع..

عدتُ إلى المتجر لأطلب النجدة، فتطوع أحدهم بطلب الشرطة..

لكنني لم أكن أملك الصبر قَط، من المحال أن أنتظر وصول سيارة الشرطة ومن ثم إضاعة الوقت في التحقيق دون أن أفعل أي شيء؛ لذلك وجدتُ نفسي أتجاهل محاولات الموجودين لتهدئتي واخترتُ الركض بلا تردد إلى الخارج..

كنتُ أركض في الطريق والسيارات القليلة هناك تمر بمحاذاتي..

أركض بلا توقف، لا أذكر كم من المدة، لكنني لا أنسى لحظة التفاتي إلى الخلف وتوجيه نظري حيث المتجر، والذي وجدتُه

صغيرًا بالكاد يُرى بالعين المجردة، وهذا تحليل كافٍ يخبركم عن حجم المساحة التي قطعتها ركضًا..

أركض وأتلفت يمينًا ويسارًا، أصرخ تارة وألتقط أنفاسي المتسارعة تارة أخرى، لا أملّ من تكرار اسم ابني:

- بتاااال... بتاااااااااااال.

ولكن لم يكن يجيبني، لا شيء سوى صوت الرياح تخلله بعض أصوات السيارات العابرة..

بدأت الشمس في الشروق، وبدأتُ أفقد قواي شيئًا فشيئًا، لم أعد أشعر بقدميّ من قوة الألم..

أصبحتُ أمشي بلا توقف بشكل متعرج وبطيء حتى سقطتُ على الأرض..

لا أذكر شيئًا بعد ذلك، لقد فقدتُ الوعي على ما أذكر..

الحقيقة لا أذكر كم من المدة غبت فيها عن الوعي بسبب المجهود الذي بذلته في الركض..

فتحث عينيّ على سقف قماشي، لم أفهم هذا المنظر حتى جلستُ بصعوبة..

وجدتُ نفسي ممددة بالمقعد الخلفي للسيارة..

التفتُ فوجدتُ ابني بتال يجلس برفقة رجل غريب، لم يسبق لي وأن رأيته، هل أنا أتوهم ما أرى؟

صرختُ وأنا أنهض وأحاول الاعتداء عليه بعدائية مفرطة كي أبعده عن ابني..

لكنه أحكم قبضته على معصمي وهو يصرخ طالبًا مني الهدوء..

ثم قدّم لي ابني وطلب مني الجلوس معه بداخل السيارة، ثم قال بلغته العربية البدوية:

- لو كنتما برفقة لقمان فعلًا لقتلتكما دون تردد.

يتحدث العربية! وهنا في ميانمار!

شعرتُ بدوار خفيف وكادت عيناي أن تخرجا من الحجاجين، لم أكن مستعدة لسماع اسم زوجي قَط..

حاولتُ أن أكمل توسلاتي وسط رهبة ابني الذي تقاسم الغضب والخوف ملامحه الجميلة..

وقد انعكس اضطرابي على صفاء روحه بسبب هذا الرجل الخاطف، لكنه أوقف محاولاتي بحديثه بعد أن صرخ مجددًا طالبًا

مني السكوت قائلًا:

- أعلم أنكِ زوجته وتأكدتُ من بعد هروبكِ أنكما لستما على وفاق.

حلت لحظات من الصمت على المكان، فسألته بوضوح وحزم وأنا أبعد ابني إلى الخلف قليلًا:

- مَن أنتَ؟ وكيف تعلم عن حياتنا الخاصة؟

أجابني بعدما استدار بجسمه قليلًا:

- لا يهم... أنا شخص متضرر مثلكِ.

- وما يدريكَ أنني متضررة؟

- كنت أراقب منزلكم قرابة العشرة أيام حتى أتوصل إلى ما أريد.

إجابته كانت صادمة، يراقب منزلنا! ودون أن نشعر! وما الذي يريده مني أنا وابني بمطاردته لنا؟

واصل حديثه بكل ثقة:

- عندما وجدتكِ تتسللين بحذر تحت المطر برفقة ابنكِ نحو السيارة وبطريقة غريبة ولافتة، وبعد محاولة لقمان في الاعتداء عليكما قبل مغادرتكما، علمت أنكِ تهربين من بطشه؛ ولذلك لحقتُ بكما.

- لم أجد إجابة واضحة حتى الآن، أخبرني لماذا تفعل ذلك كله؟

- كنتُ أريد أن أنتقم من لقمان من خلال إلحاق الضرر بكما، وعندما وجدتُ ابنكِ وحده في السيارة قررتُ أن أبدأ به ومن ثم استفرد بكِ.

تعرّقتُ رعبًا، وشعرتُ أن جسمي قد اقترب جفافه من جميع السوائل، كان يتحدث بصراحة وبثقة مرعبة كما لو أنه قاتل قد اعتاد على التصفية، لاحظ هو ملامحي بعد أن التفت نحوي؛ لذلك واصل حديثه كما لو أنه أراد أن يُطمئنني، حين قال:

- لاحظتُ أن ملامح ابنكِ لا تشبه ذلك الحقير، وعلى حسب معلوماتي ليس لديه أبناء، ثم ربطت ذلك بطريقة مغادرتكِ المريبة من منزله ففهمتُ حينها أنكِ تهربين من شيء ما.

- والآن... وبعدما علمت عن الحقيقة، ماذا تريد مني الآن؟

- صفقة.

- نعم! أنتَ أمام الشخص الخطأ، أرجوكَ اتركني أواصلُ رحلتي.

- أرجوكِ أنتِ... استمعي إلى قصتي ولكِ الحكم، سأنتقم لكما من لقمان صدقيني لن أؤذيكما أبدًا، فأنا لم أقتل دجاجة في حياتي.

لماذا يصر على الانتقام من لقمان؟ ثبتتُ نظري على عينيه وأدركتُ أن نار الثأر تحرقه من الداخل..

لقد رأيت لهيبًا مخيفًا يضيء حدقتيه ويخبرني بكل شيء، حينها سألته بكل وضوح:

- أخبرني مَن تكون؟

- أنا يوسف... سعودي الجنسية، أريد استعادة حقي فقط.

- سعودي! ما حقكَ الذي تريده من لقمان في هذه البلاد؟

- دعينا نتحرك ونتناول طعام الإفطار بالمحطة التالية وسأخبركِ

عن كل شيء.

نظرتُ إليه والحيرة تسيطر على وجهي، شعرتُ بصدقه، ثم نظرتُ إلى ابني الذي كان مرهقًا جدًا..

كان يبتسم رغمًا عن إرهاقه وهو يضع يده اليمنى على بطنه الجائع، الحقيقة لم أمتلك الكثير من الخيارات؛ لذا وافقت.

صعدنا إلى المقعد الخلفي للسيارة، وتولى يوسف القيادة..

لفنا الصمت طوال الطريق وخلا كل فرد منا لأفكاره، أقل من نصف ساعة حتى وصلنا إلى المحطة المقصودة، وبدلًا من أن يركن السيارة في موقف قريب من المطعم، اختار أن يفعل ذلك في مكان بعيد من الجهة الخلفية للموقع..

استغربتُ من فعله، لكنه أخبرني بأنها مجرد احتياطات أمنية، أصابني بعض التوتر لكنني كنتُ مقتنعة بعض الشيء بتصرفه؛ لذلك لم أتوقف عند فعلته هذه كثيرًا..

دخلنا إلى مطعم يقدم إفطارًا أمريكيًا، لم يكن مكتظًا بالناس؛ لذلك كان الجو العام رائعًا ومريحًا للنفس برفقة الأغاني الهادئة والتي كانت تنتشر في أرجاء المكان..

جلستُ بجانب ابني بتال وجلس ذلك الرجل على الكرسي المقابل لنا على الطاولة نفسها..

وبعد أن تناولنا الطعام الذي لم أتلذذ بطعمه من شدة الجوع..

ما كان يهمني كله هو سد جوع صغيري بتال الذي شعرتُ أنه قد

بدأ في استعادة نشاطه بعض الشيء..

المهم بدأ الشاب السعودي يوسف في الحديث، أخبرني عن قصته، حيث بدأها قائلًا:

- أنا هنا من أجل الانتقام لمقتل أخي ناصر.

كان حديثه صادمًا، لقد أخبرني عن تفاصيل لم أكن مهيأة لسماعها؛ زوجي لقمان كان قد استدرج أخاه ناصر إلى ماليزيا تحت غطاء الاستثمار في العملات المضروبة(4)

للأسف لم يكن الضحية الوحيدة، لكنه كان الضحية الأكثر إلحاحًا من بين الضحايا..

ثلاثة مليون دولار هي مجموع الأموال التي استحوذ عليها لقمان من أخيه..

هذا المبلغ كان قد جمعه أخوه من بعض أصدقائه مقدّمًا لهم الوعود باسترداد الأرباح..

وخلال مدة لا تتجاوز الستة أشهر، تسلّم أرباحًا مغرية في البدايات..

لكنه لم يكن يعلم أنه بمثابة الطعم الذي كان يريد من خلاله جلب المزيد من الأموال..

لقد تكبد أخوه خسائر مادية ومعنوية وجعله مُطاردًا من المتضررين في مدينتهم؛ مدينة الرياض..

حاول التواصل مع لقمان وكان يتلقى الوعود المتكررة والكاذبة

حتى أصبح يتجاهل اتصالاته ولا يجيبه؛ فاضطر بعد ذلك إلى استلاف بعض المال ومن ثَمّ التوجه إلى ماليزيا من أجل البحث عنه..

وبعد محاولات وبحث مستمرين عثر على مكتبهم هناك، ومن ثَمّ توصل إلى لقمان الذي لم يكن يتوقع وصول أخيه إليه..

حصلت مشادات وتهديدات متبادلة قبل أن يتفقا على تسوية الأمر بأقل الخسائر..

فطلب منه لقمان التوجه إلى ميانمار حيث المكتب الرئيسى كما أوهمه، يقول يوسف وهو ينظر إلى النافذة المحاذية لطاولتنا وهو في قمة حزنه:

- ليته لم يستجيب لطلبه، لقد استدرجه إلى فخ قذر مثله، ثم قام بقتله.

واصل سرده ليخبرني أن أخاه كان قد جمع قرابة العشرة ملايين ريال من بعض الراغبين في الاستثمار..

كان مندفعًا بحثًا عن الثراء السريع، لكنه اكتشف بعد فوات الأوان أنه كان ضحية لعصابات إجرامية واحترافية تتوغل في مجموعة من الدول الآسيوية..

أخبره في آخر اتصال أنه قد التقى بأشخاص من الصين قدموا أنفسهم بصفة مستثمرين..

لكنهم لم يكونوا سوى شركاء للعصابات التي يتعاون معها لقمان ويستلم عمولته مع كل ضحية يستدرجها إليهم من دولة إلى أخرى،

وابتزازهم، والذي يصل إلى مرحلة الاختطاف أو الإخفاء أو حتى القتل!

ضممتُ يدي على فمي، شعرتُ بخوفٍ غير مسبوق..

هل يرقى حجم الإجرام الذي يصل إليه لقمان إلى مرحلة القتل؟!

كنت أعتقد بأن أقصى ما كان يقوم به هو الاتجار في البشر، لكنني لم أتخيل ولو لوهلة أنه لا يتردد في إزهاق أرواحهم، لقد كان أخوه ناصر ضحية احتيال قذرة(5).

أبديتُ ليوسف تعاطفي مع قصة أخيه.. ثم وجدتُ نفسي أخبره عن التفاصيل التي اكتشفتها في مكتب زوجي الحقير، ووجدتُه يستمع إليّ دون أيّ استغراب، قبل أن يقاطعني ويعرض عليّ طلبًا غير متوقع؛ قال لي:

- أريد مساعدة منكِ.

طلبه هذا جعلني أدخل في نوبة توتر عالية المستوى، حدثتُه مرتبكة:

- مساعدتي! مستحيل... لا يمكنني فعل أي شيء من أجلكَ..أريد النفاذ بابني ومغادرة هذه البلاد فورًا ودون تأخير.

- لا يمكنكِ فعل ذلك.

- ومَن أنتَ حتى تقرر عني؟

- كل من يدخل برفقة الحقير لقمان لا يمكنه الخروج من البلاد إلا بأمره.

لا أصدق ما أسمعه، أخبرني يوسف بأنه وفور عِلم لقمان بدخوله إلى ميانمار كان قد عمم اسمه؛ حتى لا تمكنه المغادرة بحجة محاولة قتله، وواصل حديثه قائلًا:

- وبسبب هذا البلاغ الجهات الأمنية تبحث عني لاعتقالي، أكملت الآن قرابة الشهر وأنا أتخفى وأنتظر الفرصة للقصاص من ذلك القذر.

سألته وأنا أحاول أن أستجمع لعابي الذي أوشك على الجفاف من شدة التوتر:

- ولماذا أنتَ متأكد بأنه لا تمكننى المغادرة؟

- لديّ علاقاتي بالشرطة، أخبرني أحدهم عن مذكرة اعتقالي، وسألتُ عنكِ بعدما خطفتْ ابنكِ وأخبرني بأن لقمان قد عمم اسمكِ واسم ابنكِ منذ دخولكما برفقته إلى ميانمار.

صرخت عليه غاضبة مرددة في وجهه بأنه يكذب عليّ..

لكنه طلب مني الهدوء ووعدني بأنه سيثبت لي ذلك بالدليل القاطع.. وقبل أن يواصل حديثه لاحظنا دخول رجل شرطة!

توجه إلى أحد العاملين بالمطعم والذي كان بالقرب من طاولتنا، ثم سأله عن سيارة تحمل مواصفات سيارة لقمان نفسها!

هنا أشار إلينا يوسف بالهدوء ثم طلب اللحاق به مباشرة والتوجه إلى السيارة قبل أن يضع بعض النقود على الطاولة كقيمة للطعام، وبالفعل خرجنا بحذر ومن ثم توجهنا إلى حيث موقف السيارة

وغادرنا بسرعة..

سألته عن موقف الشرطي وأنا أرتعد، فأجابني وهو يقود السيارة:

- مهلما توقعت، سيبحث عنكِ من خلالهم، حتمًا هو مَن أبلغ عن اختفائكِ.

ثم طلب مني الهدوء وبدأ بإجراء بعض الاتصالات، وخلال عشر دقائق أخبرني بالإجابة الكاملة، حين قال:

- زوجكِ الحقير قدّم بلاغًا ضدكِ يتهمك فيه بسرقة سيارته والكثير من المال.

أنهى حديثه وسط صدمتي ثم انحنى بالسيارة إلى جانب الطريق قبل أن يتوقف، ثم طلب مني النزول برفقة ابني وبدأ في تفتيش السيارة دون أن يُخبرني عمّا يبحث، وفجأة أخرج ثلاثة أكياس كل كيس يقترب حجمه من مقاس حجم كف اليد، ثم قال:

- كما توقعتُ... هيروين، لو وقعت السيارة تحت أيدي رجال الأمن؛ فسيتهمونكِ بنقل هذه الممنوعات، وحجة ذلك الحقير جاهزة؛ وهي أنكِ مَن سرق السيارة وما بداخلها كلّه هو مِلك لكِ وبالتالي ستدفعين الثمن باهظًا من حياتكِ يا ليلى.

كدتُ أجن من تتابع الأحداث الإجرامية التي استقبلها من ذلك القذر..

اللعنة على هذه الزيجة غير السوية، أنا السبب، لم أستفد من تجربتي الأولى، كان يجب أن أتردد ألف مرة قبل أن أفكر بالأمر ألف مرة أيضًا.. حتى لا أعود إلى تكرار تجربة الزواج في دوامة الغربة..

كم هو غريب هو أمر بعض البشر، كيف لأحدهم وبعد أن ينجو

بأعجوبة مباركة من دوامة علاقة كادت أن تقضي عليه كليًا، بمجرد أن يبتسم له الحظ ويبدأ بالتعافي جزئيًا باستعادة بعض نفحات الحياة..

أن يستجيب بغبائه لعلاقة أخرى مُكررًا معها الخطوات نفسها والأخطاء نفسها الساذجة ليتجرع ويلات العذاب من جديد!

لقد شعرتُ بأن لساني قد عُقد وامتنع عن الحركة كليًا..

هذه المرة وجدتُ ابني بتال هو مَن يسحبني من لباسي ويحتضنني، لقد شعر بخطورة موقفي ووضعي النفسي المتأزم في تلك اللحظة، بركتُ على ركبتيّ وبادلته الحضن لأنني كنت في أمسّ الحاجة إلى ذلك، ووسط صمت يوسف الذي بدا لي أنه تأثر كثيرًا من هذا الموقف..

ووجدتُه قد أبعد نظره عنّا ثم بدأ بإعادة الأكياس الثلاثة كما كانت تمامًا، ولفت نظري ما يقوم به..

فوجدتُ نفسي أقبّل ابني وأبعده قبل أن أنهض وأسأله مباشرة عما يفعله فأجابني قائلًا:

- عليكِ أن تدركي حجم الكارثة التي نحن فيها؛ حتى أتمكن من إنقاذكما بعد أن أنتقم من لقمان الحقير، نحن الثلاثة محجوزون داخل دولة ميانمار.

عبارة أرعبتني جدًا، لا يمكننا الخروج، الجميع يبحث عنا، لقمان ورجاله والشرطة كذلك..

وجدتُ نفسي أتوسل إليه وأطلب مساعدته، ووعدني خيرًا،

خصوصًا بعدما تأكد بأنني لست سوى ضحية لما يدور من حولي كله، وأن ما أسعى إليه كله هو النجاة برفق ابني الصغير والبريء؛ لكنه اقترح عليّ مقترَحًا غير متوقع كاد أن يغمي عليّ بعد سماعه؛ حين قال بكل جرأة وإصرار:

- يجب عليكِ العودة إلى منزل لقمان وبأسرع وقت.

- نعم! ما الذي تقوله! أجننت؟

حاول أن يشرح لي وسط تَكرار مقاطعتي لحديثه ورفضي بغضب وتشنج..

لكنه كان يصر على موقفه وعذره في ذلك أن البلاغ بهذه الطريقة سيغلق خصوصًا أنه طلب مني بأن أخبر زوجي بأن خروجي كان بسبب غضبي من تصرفه الأخير وشربه الزائد والذي أرعب ابني؛ مما أجبرني على الخروج، وقضاء بعض الوقت بعيدًا عنه..

كانت فكرته فكرة مجنونة لكنها تتطلب إلى شخص مجنون أيضًا حتى ينفذها..

حتى أنهى حديثه بملاحظة مهمة لم تسمح لي بعدها مواصلة الاعتراض، حين قال وهو في قمة تفاعله:

- الهروب الآن ليس مجديًا أبدًا، خصوصًا أنكِ تتحركين في مساحة مغلقة تُشبه القفص، لن يمكنكِ الخروج منه أبدًا إلا بمخطط ذكي.

وواصل شرحه للخُطة التي تتطلب الكثير من المغامرة؛ كان يجب عليّ أن أعود إلى ذلك المجرم..

وأتصنع بعدم معرفتي لأي شيء، ووعدني أن الأمر لن يطول، حتى يعود مجددًا لتحريري أنا وابني ويخرجنا من البلاد، ومن ثم يساعدنا في الذهاب إلى أية وجهة أريدها، ولكنه كان يريد مني تنفيذ أمر لم أتقبله..

أعطاني قنينة زجاجية صغيرة جدًا؛ منوّم قوي!

وطلب مني أن أخلطها مع أيّ مشروب وأقدّمه لزوجي، وبمجرد التأكد من غيابه عن الوعي..

اتصل عليه للدخول إلى المنزل حتى يبحث عما يمكّنه من رقبة لقمان..

رفضتُ ذلك قطعيًا، فلا أريد أن أورط نفسي في أمور لا تُحمَد عقباها..

ولكن كان هناك شيء ما يشاغب احتياجاتي الطارئة؛ فبعد محاولات استمرت قرابة الساعة من الشرح وتقديم الوعود والقسم على ذلك، وجدت نفسي عاجزة أمام هذا الواقع البائس.. وخبأتُ القنينة الصغيرة بين ملابسي..

الحقيقة لم يكن أمامي سوى الاستجابة أملًا في إمكانية النجاة، فطلب مني التنفيذ فورًا واستغلال الوقت قبل التأخر أكثر من ذلك، ورضخت للأمر الواقع فلا حل أمامي سوى ذلك..

فتحريري من ملاحقة الأمن هي خطوة مهمة وجوهرية من أجل التقدم بالخُطة نحو الخروج كليًا من البلاد بعد التخلص من لقمان غريب الأطوار..

وقبل مغادرتي تذكرت الـUSB الذي أخذته من جهاز لقمان قبل هروبي..

وقدمته إلى يوسف وأخبرته عن قصته، لعل وعسى أن يستفيد منه ضد ذلك الحقير الذي لا يرحم البشر..

ثم تبادلنا أرقام هواتفنا النقالة، وغادرتُ فورًا بالسيارة برفقة ابني بتال متوجهينِ إلى بيت لقمان وأنا لست بكامل قواي النفسية.

بعض المتغيرات..

تُجبرنا على المرور بمحاذاة الموت..

من أجل العودة إلى الحياة!

عدنا إلى المنزل..

كنتُ أشعر برجفة قدميّ على الرغم من اجتهادي في التماسك..

لم يكن لقمان في الداخل، تعمدتُ إيقاف السيارة أمام المدخل حتى يلاحظ ذلك..

قدمتُ لأبني بتال حمامًا ساخنًا قبل أن آخذ نصيبي من الاستحمام..

وشعرتُ براحة نفسية كما لو أنني جددت طاقتي من جديد، وعلى الرغم من حجم الخوف الذي كان يتوغل في داخلي بلا توقف، قررتُ أن أجهز طعام العشاء كما لو أن شيئًا لم يكن.. وقد كان ذلك.

وبعد مرور قرابة الثلاث ساعات واقتراب الشمس من الغروب، عاد لقمان!

دخل إلى المنزل كما لو أنه مقتحمًا، كانت ملامحه تشرح أشكال الغضب كلها..

لكنها سرعان ما تبدلت إلى ملامح تعكس معنى الاستغراب أو الذهول؛ لقد لفت نظره حالتي الشكلية..

جمالي ولباسي المرتب والنظيف، وحتى رائحة الطعام التي تنبعث من المطبخ إلى أرجاء المكان..

لم أترك له المبادرة بالحديث؛ بل قررت أن أبدأ أنا سياسة الدفاع بالهجوم..

قلتُ له وملامحي تتصنع العتب على الرغم من حجم التوتر:

- لا تقل شيئًا... كنت أحتاج إلى تغيير مزاجي برفقة ابني بعد تلك الليلة البشعة التي كنتَ فيها لا تعي ما تفعل، لا أريد أن أتذكر أي شيء.

تأملني كمَن يحاول فَهم الموقف ثم سألني بتردد:

- ألم تهربي؟ منذ متى تأخذين سيارتي وتغيبين هذه الفترة كلها عن المنزل!

- لو شاهدتَ حالتكَ المزرية تجاهي وتجاه ابني لما سألتني هذا السؤال، هيّا يا عزيزي قم بتبديل ملابسكَ وعُد إلى هنا حتى نتناول طعام العشاء.

نظر إليّ قليلًا، ثم قال لي بصرامة واضحة:

- هذه المرة الأخيرة التي تقومين بها بمثل هذا التصرف غير المسؤول.

- حسنًا... وأتمنى أن تراعي مشاعري ومشاعر ابني في المرات القادمة.

- أين هو؟ أريد اللعب معه قليلًا.

تلعثمتُ وحاولتُ التماسك وتحججتُ بأنه مرهق ويحتاج إلى النوم..

تفهم ذلك ثم ابتسم لي كما لو أنه تنفس الراحة من جديد، ثم ذهب إلى غرفته..

لا أصدق أن الأمر قد انتهى بهذه السهولة، يبدو أنني نجحتُ منذ

البداية..

كانت ليلة صعبة، لأول مرة أعيش معه مشاعر مصطنعة، تفاصيل ليست حقيقية..

كان شعورًا مزعجًا يتخلله الكثير من الخوف، تخيل أن تتناول وجبة عشاء برفقة مجرم على طاولة واحدة ولوحدكما، كان عليّ التعامل مع هذا الظرف الخطير من أجل إنقاذ ابني..

فمن أجله لن أتردد في فعل أي شيء، كان يتناول الطعام وينظر إليّ، وكنتُ أبتسم وأتصنع الخجل مبعدة عينيّ من مواجهة عينيه، حتى لا يتضح التوتر الذي كان يشاغب ملامحي..

قدّم لي اعتذاره عما بدر في تلك الليلة، وعذره أن ضغوطات العمل التي يخوض دهاليزها في كل يوم هي ما تجبره على الشراب..

وبعد أن فرغ من الحديث، طلب مني ماءً باردًا غير الماء الموجود..

ابتسمتُ له ونهضتُ متوجهة إلى المطبخ كي أحضره له،

الحقيقة كان طلبًا بمثابة طوق النجاة لي..

كنتُ أبحث عن الابتعاد قليلًا حتى أتنفس بعض الشيء وأخرج التوتر كله الذي بداخلي..

والأهم أن أضع له المنوم في المكان المناسب!

عدتُ إلى طاولة الطعام وقدمتُ له الماء كما طلب..

ثم أكملنا سويًا تناول طعام العشاء حتى فرغنا من ذلك، اقترب مني بعد ذلك وهو يزيح خصلة شعري المتدلية على جبيني، ثم

سألني بصوت منخفض وبلغته الإنجليزية المستفزة التي أكرهها:

- اتبعيني إلى غرفتنا.

هنا تظاهرتُ برغبتي لكن حاجة ابني بتال لوجودي هي حاجة لا يمكن تجاهلها..

وأخبرتُه أنني سأبقى هذه الليلة فقط برفقته؛ حتى يطمئن قلبي عليه، لم يجادلني، بدا لي أنه تفهم الأمر تاركًا رغبته ومقدمًا رغبتي على غير العادة، فتركته يذهب إلى الغرفة وتوجهتُ أنا للنوم في غرفة ابني..

أريد أن أخبركم أمرًا ما..

لم أضع المنوم في كوب الماء قبل تقديمه، لقد عشتُ لحظات عصيبة من التردد..

يجب عليّ المحاولة في اليوم التالي، أن أكون أكثر جرأة، لقد تمكنتُ من النفاذ هذه الليلة..

ولا أعلم كيف سأتصرف لبقية الأيام، المهم لديّ هو انتهاء تلك الليلة بتفاصيلها كلها ودون عواقب سيئة..

وبعد نومة عميقة كنتُ في أمَسّ الحاجة إليها بجانب ابني الوحيد..

فتحتُ عينيّ بصعوبة بالغة، وشعرتُ أن تنميلًا قويًا يداعب رأسي، لم أجد ابني بجانبي..

لا أعلم أين ذهب، حاولتُ النهوض، كنتُ أشعر بالإرهاق، لكن هناك

شيء ما كان يمنعني!

لحظة... ما هذا الذي تراه عيناي؟

يداي مقيدة بإحكام في أطراف السرير، وكذلك رجليّ!!

لا أصدق ذلك، حاولت تخليص نفسي حتى أفهم ما الذي يجري، ولكن بلا أية فائدة..

وبدأت في الصراخ باسم ابني:

- بتاااااال... بتاااااااااااال.

ولكن لا أحد يُجيب، عدتُ لمحاولة التخلص من القيود والتي لا أذكر كيف ومتى تمكنت من أطرافي دون أن أشعر بذلك، ولكن لا بد من المساعدة، وبينما كنتُ أحاول الفكاك، دخل عليّ لقمان وهو يمسك كوب قهوته، كان يرسل ابتساماته إليّ ساخرًا، وعيناه تحمل شرًا لا يكذب وهو يحدثني:

- هل أعجبتكِ النومة الطويلة؟ يبدو أن الجرعة قد زادت قليلًا.

شعرت بدوار، لم أستوعب هذا الموقف المرعب الذي كنتُ عليه..

هل أعيش كابوسًا قد ينتهي في أيّة لحظة؟ أم أنها الحقيقة الوحيدة؟ ما الذي يحدث؟

وكيف فعل ذلك بي؟ ولماذا؟

لحظة... التنميل والخمول اللذان ينتشران في جسمي؛ يبدو أنه قد وضع المنوم لي قبل أن أضعه له..

للأسف ترددي جعلني أقع في الفخ نفسه الذي كنتُ أنوي أن أصطاده من خلاله..

الآن فهمتُ لماذا طلب مني إحضار الماء البارد من الداخل على الرغم من توافره على السفرة؛ حتى يستغل غيابي ويضع لي المنوم في الطعام!

اقترب مني ببطء حتى أصبح بمحاذاة وجهي وبدأ يتأمل ملامحي..

وكنتُ أسأله عما يحدث وأنا أرتعد، وأطلب منه فك قيودى، قبل أن يضع يده على فمي مخرسًا محاولاتي كلها، ثم أخرج هاتفه وعرض أمام عينيّ مقطع فيديو!

كاد أن يُغمي عليّ مما شاهدته، مصيبة حقيقية وجدتُ نفسي أعيشها لن تمر مرور الكرام..

أكاد لا أصدق، كان يعرض أمامي مقطع ڤيديو مصور من كاميرا يبدو أنها مخبأة بعناية في مكتبه اللعين.. تُظهرني وأنا أعبث في أدراج الملفات، والأسوأ من ذلك، يُظهرني وأنا أسرق ال: USB !

شدَّ شَعري بعنف وأنا أرتجف من هول الموقف، ثم صرخ قائلًا:

- لقد وقعتِ فى شرِّ أعمالكِ ويجب أن تدفعى الثمن.

ودون أية مقدمات، انتفضتُ بشكل مفاجئ بعد أن طرأ ابني على بالي؛ فسألتُه عنه متجاهلة حجم المصيبة التي كنتُ فيها، فوجدتُه ينهض من عندي وخرج من الغرفة وسط دهشتي..

ثم عاد حاملًا ابني وهو يبكي بقوة، كان مكبلًا ويضع على فمه شريطًا لاصقًا..

قبل أن يُلقي به إلى جانبي ويغادر مغلقًا الباب!

اقترب ابني مني بصعوبة ووضع خده على صدري كما لو أنه يهدئ من روعي..

أعلم أنه من المفترض أن أقوم أنا بهذا الدور، لكنني كنت في وضع صعب جعلني أحتاج بعضًا من هذا العطف الصادق، حاولت إبعاد الشريط اللاصق من على فمه بواسطة أسنانى..

وقد نجحت بصعوبة، قبل أن أحاول فك قيوده التي لم تكن محكمة.. وقد نجحت من ذلك بصعوبة وبعد وقت طويل وبالطريقة نفسها، كان تحريره قد أضفى عليّ شيئًا يسيرًا من الهدوء..

كنت أعلم منذ البداية أن عودتي إلى هذا الوكر هو ضرب من الجنون، خصوصًا بعد عِلمي بحقيقة هذا الضبع المتلون في تصرفاته، وها أنا أدفع الثمن ولا أعلم ما الذي ينتظرني أنا وابني..

كان بتال ينظر إليّ وهو ممتعض الوجه، أشار بيده مستفسرًا عن سبب غضبه، فابتسمت له وأنا أقول:

- لا تقلق يا صغيرى... لن يطول غضبه.

ولكن قد تنقلب المعطيات في لمح البصر.. فبعد مرور ساعات قليلة..

اقتحم لقمان الغرفة وهو يلهث والزبد يتطاير من فمه بشكل

مخيف!

كان مرعبًا وعيناه تحملان الشر بشكل أبسط ما يمكن وصفه أنه مخيف جدًا..

بدو أن غضبه لم يهدأ بعد، كان يقترب من وجهي كثيرًا وهو يصرخ ويهدد ويتوعد بشكل قد أخافني كثيرًا، فجأة وجدتُه قد صرخ متألـمًا وهو يمسك رأسه من الخلف!

ابتعد عني فوجدتُ خلفه يقف ابني بتال وهو يحمل عصا المكنسة؛ لقد ضربه كي يدافع عن أمه..

هنا جن جنون لقمان، فتوجه نحوه وهو يصرخ بالشتائم، قبل أن يسحب منه العصا ويقذفها بعيدًا ثم صفعه على وجهه..

وبارتباك غير مفهوم فك قيودي، لكنني كنتُ قد فقدتُ كل ما تبقى لديّ من عقل بسبب ضربه لبتال..

فاعتديتُ عليه بضربات متتالية لم تؤثر به، وكان ابني يراقب ذلك برباطة جأش معتقِلًا لدموعه خلف عينيه الغاضبتين، لم يكن يرغب أن ينهزم بالبكاء..

هنا غادر لقمان وتركنا وحدنا بعد أن بصق علينا وهو في قمة التشنج..

حينها اقترب مني بتال واحتضنني بقوة قبل أن أقوم أنا بذلك، بادرتْ بالابتسامة في وجهه وأنا أشكره كثيرًا عن حمايته لي، ولمستُ من ملامحه أنه كان يشعر بالقوة من أجلي رغم كل شيء..

لم يمهلنا زوجي لقمان دقائق معدودة..

حتى عاد مسرعًا ليضع مفتاح السيارة في يدي ويطلب مني المغادرة فورًا!

لم أصدق حينها ما الذي كان يطلبه مني في هذا الموقف غير المتوقع..

يطلب مني المغادرة برفقة ابني ودون مقدمات على الرغم من اكتشافه لأمري، ليس ذلك فحسب، بل قدّم لي مفتاح السيارة بنفسه!

لاحظ اندهاشي من الموقف؛ فصرخ في وجهي صرخة أيقظتني من ذهولي طالبًا مني المغادر فورًا..

فقمتُ مسرعة بحمل حقيبتي الصغيرة وفتحتُ الدرج لآخذ هاتفي النقال الذي نفد شحن بطاريته، وأمسكتُ بيد ابني بتال وركضت مسرعة نحو السيارة وغادرنا..

كنتُ أقود بشكل عشوائي وأنا لا أعلم إلى أية وجهة يأخذني الطريق، الخوف رفيقي كعادته..

أراقب الطريق الخلفي من المرآة الأمامية تارة، وأمسح بعينيّ الطريق الأمامي تارة أخرى..

لقد أوصلني بأفعاله غير المتوقعة إلى مرحلة نفسية لم أعهدها من قبل؛ لذلك لم أندم على تركه والمغادرة..

فالاستمرار في مثل هذه العلاقات المدمرة لن يقدم لكَ سوى الدمار..

ومن الغباء أن تخلق له الأعذار من أجل المواصلة.. فالمعادلة فيها سهلة وهي كالآتي؛

مَن يصنع منكَ أسوأ نسخة ممكنة، هو الشخص الذي لا يستحق البقاء معكَ..

ما يهمني هو أن ابني بتال بخير، نظرتُ إليه، فوجدتُه يبادلني النظرات وهو يبتسم..

شعرتُ حينها أن الكون كله بخير، كم أحبه هذا الجميل الصامت..

واصلتُ المسير حتى لاحظتُ أن الوقود يوشك على النفاد..

ومن حسن الحظ أنني قد أخذتُ حقيبتي قبل المغادرة، والأهم أن لقمان لم يقم بتفتيشها؛

فالمال الذي بحوزتي هو ما يتكفل بحلّ مثل هذه المواقف الصعبة، أكملتُ الطريق حتى صادفتُ المحطة، أوقفتُ السيارة حتى أتزود بالوقود، وبينما كنتُ ألعب مع ابني قليلًا حتى أخفف عنه وقع الأحداث الصعبة والتي لا يحتملها طفل في عمره..

فتح أحدهم الباب الخلفي وصعد وأغلقه بسرعة ثم طلب مني الهدوء!

كاد قلبي أن يفقد قدرته على النبض، قبل أن أتعرف على هُوية الشخص..

الشاب السعودي يوسف مرة أخرى، ودون مقدمات تحدّث وهو يخفض رأسه:

- حاولت الاتصال بكِ لكن هاتفكِ مغلق... لا تجادلي... الأمر خطير جدًا، ترجّلي من السيارة بعد مغادرتي بدقائق، وتظاهري بالذهاب برفقة ابنكِ إلى المتجر ثم اخرجي من الباب الخلفي، وسأكون بانتظاركِ هناك بداخل سيارة زيتية اللون.

أنهى حديثه ثم غادر مسرعًا وتركني وسط الذهول الذي صنعه لي..

الحقيقة وعلى الرغم من ظهوره المفاجئ في طريق معاناتي، لم يكن أمامي وأنا أعيش تقلبات التوتر بشتى أنواعه إلا أن أثق به، خصوصًا أننا نواجه الخصم نفسه؛ لقمان اللعين، فأن أكون برفقته أهون بكثير من أن أصارع وحدي مفاجآت الغربة والمجهول..

وبالفعل، بعد دقائق من مغادرته، نفّذتُ ما طلبه مني بالحذافير، ووجدتُه ينتظرني كما أخبرني..

ركبتُ معه برفقة ابني بالمقعد الخلفي، وغادرنا مسرعين تاركين خلفنا سيارة لقمان في محطة الوقود..

ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان!

ظهر سيارتان خلفنا فور مغادرتنا؛ فعلمنا أننا مطاردون!!

طلب يوسف مني ومن ابني التمسك جيدًا قبل أن يزيد من السرعة بطريقة جنونية..

كانت مطاردة هوليودية لا نشاهدها إلا في أفلام الإثارة، من المتعة أن تشاهدها من خلف الشاشة..

لكن قمة الرعب أن تعيش تفاصيلها الواقعية بنفسك..

كنتُ أصرخ على يوسف وأنا أترامى برفقة بتال يمينًا ويسارًا، وأسأله غاضبة ومرعوبة:

- ما الذي يحدث؟ مَن هولاء؟

أجابني وهو يواصل القيادة بتهور عالٍ:

- لا شك أن لقمان قد أرسلهم.

- لقمان!

- يبدو أنهم كانوا يراقبونكِ منذ مغادرتكِ من أجل الوصول إليّ.

كان يوسف يتجاوز السيارات بشكل خطير، وكانوا يصرون على اللحاق بنا في محاولات أكثر خطورة..

في كل مرة كانوا يقتربون فيها، كان يوسف ينجح في الابتعاد عنهم قليلًا..

حتى اصطدم أحدهم بسيارة أخرى، وواصلت السيارة المتبقية اللحاق بنا، هنا قرر يوسف خفض السرعة..

سألته عما يفعله؛ فطلب مني بغضب أن أخفض رأسي وأهتم بسلامة ابنى..

استجبتُ لطلبه في تلك اللحظات، ولمحتُ ملامحه الغاضبة في المرآة العلوية، لم يكن يقود السيارة فحسب؛ بل كان كما لو أنه يقود مصيرنا جميعًا..

اقترب مني بتال ثم تكور في حضني باحثًا عن الأمان، فانحنيت عليه أبحث معه عن الأمان نفسه..

حينها شممث رائحة عرقي الممتزج بالخوف.. كانت تشبه رائحة حيوان لا حول له..

يطارده صياد جائر لا يعرف الرحمة..

خفّض يوسف السرعة حتى أصبحت سيارة المطارد بمحاذاتنا، رفعتُ رأسي كي أنظر إلى الخارج..

فوقعت عيناي على مشهد غير متوقع، وجدتُ السائق وهو يصوب سلاحه نحو يوسف!

هنا تدخل يوسف وقرر الاصطدام بالسيارة وأفقد سائقها السيطرة بعض الشيء..

لكنه عاد مرة أخرى للمحاولة، فما كان من يوسف إلا أعادة الكرّة..

وكرر ذلك ثلاث مرات وسط مقاومة المطارد وارتفاع السرعة تدريجيًا بشكل مثير..

حتى أجبره يوسف على الاصطدام بشاحنة مواشي بشكل مروع!

وواصلنا المسير بسرعة هاربين ومتوجهين إلى أقصى نقطة ممكنة، وتنفسنا الصعداء كما لو أننا قد نجونا من مصيدة مميتة كانت قد نُصبت لنا..

اختار يوسف طريقًا فرعيًا حتى قطع شوطًا لا بأس به قبل أن نتوقف من أجل الراحة..

نظرتْ إليه فوجدتُه يتجنب النظر إلى وجهي، حتى حدثته غاضبة:

- أخبرني ما الذي يحدث... وماذا يجب أن نفعل الآن؟

- لا أعلم... ما علينا فعله كله هو مواصلة التخفي.

- كفاكَ أنانية... أفكاركَ المتهورة كادت أن تتسبب في مقتلي أنا وابني بعد اقتراحكَ الغبي عليّ بالعودة إلى منزل زوجي لقمان.

نظر إليّ بلامبالاة ثم تحدّث:

- أنا من خلصكما من قبضته.

- نعم!

- أرسلت له ڤيديو قصير غيّر مخططاته كله، لقد ساومتُه حين تواصلتُ معه وطلبتُ منه بأن يترككما تغادران فورًا مقابل أن أسلمه الـ USB.

علمتُ منه مدى خطورة هذه القطعة البلاستيكية التي التقطتها من مكتب زوجي..

ومن ثم سلمتها إليه قبل قرار عودتي إلى المنزل، هذا الـ USB يحمل الكثير والكثير من المستندات الخطيرة والڤيديوهات الموثقة لعمليات تسليم الفتيات إلى بعض الشخصيات المهمة وأصحاب الملاهي الليلية في صفقات قذرة ومخالفة..

أكد لي يوسف أن زوجي لقمان ما هو إلا وسيط يتخفى ويتاجر في البشر وفي العملات الصعبة بشكلٍ سريٍّ، وبأساليب حقيرة ومتنوعة، كان يوهم الفتيات الجميلات بالحب أو بالزواج ومن ثم

يقوم باستدراجهن حتى يبيعهن بمبالغ طائلة!

هل كنتُ ضحية؟ لا أصدق، خصوصًا أنه قد ساعدني في الهرب من قبضة العصابة التي قامت باختطافي ومحاولتهم لبيعي إلى ملهى ليلي بأحد الفنادق، أخبرت يوسف عن ذلك، لكنه عاد ليواصل حديثه ويكشف لي عن حقيقة غير متوقعة، حين قال:

- كانت لديه خلافات كبيرة حول سعركِ وسعر ابنكِ؛ مما دفع أفراد العصابة التايلاندية إلى خطفكما رغمًا عنه وبيعكما، ويبدو أنه قرر استعادتكما ومن ثم نقلكما إلى ميانمار حتى يعيد عملية البيع بسعر أعلى يناسب جهوده.

لا أصدق ما كنت اسمعه؛ لذلك كان يخصص لي ملفًا في أدراج خزائن مكتبه برفقة بقية الضحايا..

لكن لم أكن مقتنعة بتلك التفاصيل التي سردها لي يوسف، حتى قام بإخراج جهازه الحاسوب وبحث في الملفات حتى فتح لي ملفي الخاص.. ومن ثم جعلني أشاهد الدليل القاطع الذي حسم لي الأمر وأثبت لي الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الجدال..

فيديوهات مصورة لعملية تسليم الفتيات بالباصات الثلاثة التي كنتُ بداخل أحدهم!

يبدو أن هناك مَن يصور التفاصيل كلها خلسة؛ حتى يستخدمها في ابتزاز العملاء في حال وقوع اختلاف أو نقض للوعود..

للأسف، كنتُ أظهر بشكل مزرٍ في الفيديو، وهنا توصلتُ إلى حل اللغز الذي لم أكن أفهمه..

وهو عن الطريقة غير المفهومة التي عثر بها لقمان عليّ وتوصل إلى مكاني، ومن ثم أخرجني بتلك السهولة

من وسط العصابة هناك، يبدو أن لديه علاقاته في الداخل، دوامة مرعبة ودهاليز من الصعب فَهم مساراتها وسط أمثال هذا النوع من الجنس البشري الإجرامي..

للأسف كنتُ ضحية زواج كاذب هدفه استدراج قذر من تاجر في البشر، أراد أن يبيع جسدي وجسد ابني لأعمال قذرة، أتفهم أنني كامرأة جميلة يمكن بيعي بسهولة، ولكن ماذا سيستفيد من بيع ابني الصغير الذي لا حول وله ولا قوة، أجابني يوسف على هذا التساؤل إجابة مقززة للنفس البشرية لا يمكن

استيعابها؛ حين قال:

- أغلب الظن أنه كان يريد بيعه لتجار الأعضاء.

صعقة كهربائية شعرت بها في جسمي من بعد هذه الإجابة؛ فسحبت ابني بقوة أفزعته من تصرفي وحضنته بقوة كما لو صدري قد أوشك على أن يلتهمه، كنت أبكي بصوت مرتفع، وبشكل هستيريّ..

وسط محاولات يوسف لتهدئتي..

ولكن بلا أية فائدة؛ فحجم الموقف وتفاصيله المرعبة لم تترك مجالًا للسيطرة على أعصابي المنفلتة..

لم أصدق أنني كنتُ على وشك الضياع وفقدان ابني بتلك الطريقة البشعة، لقد أحسنتُ الظن وظننتُ أن هناك حياة مستقرة بانتظاري

أنا وبتال، ولم أشك ولو لوهلة عابرة أن يغدر بي ويقدم لي الموت متخفيًا خلف وجه الحياة..

هل نَفَس الشر أطول من نَفَس الخير؟

ما يُمكننا تأكيده كلّه من خلال التجارب السابقة

أن أنفاس الشر لا تتلاشى بسهولة!

توجهنا إلى فندق صغير على الطريق..

كانت منطقة بسيطة بها العديد من المحلات والمطاعم، أخبرني يوسف أنه ينبغي علينا المكوث هنا والتواري عن الأنظار عل الأقل لمدة يومين، ومن ثم سنواصل التوجه نحو الحدود التايلاندية..

لم يكترث بتفاصيل الطريقة في سبيل تحقيق هدفه بإنقاذي وبتال.. حتى ولو كان ذلك من خلال الطرق غير الشرعية كما كان يقول..

وبالفعل حجزنا غرفتين متلاصقتين، يوسف بغرفة، وأنا وابنى بغرفة وحدنا..

ثم قام بتزويدنا بالطعام والماء وطلب منا الراحة والخلود إلى النوم..

توجه بعدها إلى غرفته حتى يرتاح قليلًا، حينها أغلقث الباب بإحكام ثم رميث بنفسي على السرير تحت هواء التكييف، لا أنسى تفاصيل ذلك الشعور، كنث أحتاج إلى هذا الجزء من الراحة..

ولا أصدق أنني كنت مستلقية حينها بعد رحلة العناء التي خضتها..

نهضث ووضعث هاتفي على الشاحن حتى أعيد تشغليه، ثم تناولت الطعام مع ابني قبل أن أساعده في الاستحمام، وأستحم أنا كذلك، وبعد أن تأكدث بأن بتال قد خلد إلى النوم..

تمددث بجانبه كي أنام، رن هاتفي فتراجع النعاس كما لو أنه لم يكن!

اتصال من كريم، أخ! لقد نسيتُ أمره مع دوامة الأحداث الدرامية التي خضتها..

أجبتُه ووجدتُه مندفعًا في حديثه غاضبًا:

- ليلى... هل أنتِ بخير؟

- أهلًا كريم... آسفة لقد فرغ هاتفي من الطاقة ومررتُ بيوم عصيب جدًا.

- لقد عشتُ ساعات من القلق النفسي الرهيب بسببكِ يا ليلى.

- آسفة الأسف كله... سأخبركَ بما حصل معي كلّه يا كريم... أنا في خطر.

ثم سردتُ له جميع ما مررت به بسبب زوجي المخادع والمجرم لقمان..

وكعادة كريم، كان مستمعًا جيدًا وهذا ما كنت أحبه فيه دائمًا، ووجدتُه يحاول تهدئتي ويشيد بالكثير من تصرفاتي وقرارتي الجريئة.. ثم وعدني بمحاولة الحضور من أجل مساعدتي..

أخبرته عن الشاب السعودي يوسف، وبأن وجوده يكفي، لكنه كان مصرًا على الحضور لأنه لا يعرفه ولا يضمن نجاتي معه.. كان يريد أن يرسل لي ولابني مبلغ تذاكر الطيران؛ لكنني أخبرته عن صعوبة الأمر خصوصًا أنني مطلوبة لدى الجهات الأمنية بتهمة سرقة سيارة زوجي والاتجار بالمخدرات ربما..

وبعد أن أخبرته عن فكرة الخروج عبر الحدود التايلاندية، أعجب

بالفكرة، وأصر على الحضور بنفسه في أقرب وقت ممكن، وأخبرني أن له بعض العلاقات هناك، وسيسعى إلى محاولة إخراجي عبر الحدود حتى وإن تطلّب الأمر إلى دفع المال؛ فشكرته كثيرًا والدموع تنهمر من عينيّ.. لطالما كان سندًا لي في منعطفات الحياة كلها التي أمرُّ بها..

انتهت المكالمة بعد أن ودعني وطلب مني الحرص على بقاء هاتفي مفتوحًا حتى لا ينقطع التواصل..

شعرتُ براحة نفسية لم أشعر بها منذ فترة طويلة.. حضنتُ ابني بتال وهممتُ بالخلود إلى النوم..

لكن ذلك الشعور لم يدوم طويلًا!

صوت طرق الباب كان يتسلل إلى أذني كما لو كان خلقًا..

حجم الإرهاق الذي كنتُ عليه أفقدني القدرة على التركيز فيما يدور من حولي..

لكن تصاعد صوت الطرق كان واضحًا هذه المرة؛ نهضتُ بصعوبة وتوجهتُ إلى الباب..

كان صوت يوسف يطلب مني فتح الباب بسرعة.. فتحتُه ووجدتُه يحمل سلاحًا صغيرًا وهو في قمة ارتباكه ويردد بصوت منخفض ومضطرب:

- احضري ابنكِ وجميع أغراضكِ بسرعة الآن، لقد وصلوا.

كادت عيناي أن تسقطا من مكانهما من فرط الرعب الذي

أصابني فجأة..

ومن دون تفكير هرولتُ مسرعة وأوقظتُ ابني بسرعة والذي تفاجأ من طلبي، ثم أخذتُ حقيبتي ووضعتُ شالًا على كتفيّ، وتبعنا يوسف الذي أخذنا مباشرة إلى مخرج سلم الطوارئ..

كنّا في الطابق الثالث، وبمجرد أن وصلنا إلى الطابق الثاني.. ظهر شخصان!

كانا يصعدان بسرعة إلى الأعلى وهما يحملان أسلحتهما؛ فباغتهما يوسف بطلقتين أسقطتهما أرضًا!!

لا أصدق، لقد قتلهما..

جُن جنوني وجنون ابني بتال الذي كان يغلق أذنيه ويصرخ باكيًا من فظاعة الموقف..

فلم يسبق لي ولا له أن شاهدنا مشاهد قتل كهذه..

صرخ عليّ يوسف وطلب مني حجب نظر ابني عن أية مشاهد وطلب مني بأن نتبعه بسرعة وبحذر..

واصلنا النزول حتى وصلنا إلى الطابق الأرضي، نظر يوسف نظرة سريعة إلى بهو الاستقبال..

فأخبرني أن نتوجه فورًا إلى الباب الخلفي بدلًا من الباب الأمامي، وقد كان الخيار الأمثل فعلًا..

خرجنا بسرعة وتوجهنا إلى السيارة وركبنا ثم لذنا بالفرار بأعجوبة..

كان ابني مرعوبًا ويرتجف بشكل قوي ولافت، وكنتُ أحاول تهدئته وأنا أحاول أن أكتم صوت بكائي من هول الموقف، كيف لفاقد الشيء أن يعطيه، كيف لمرعوب أن يعطي الأمان لمرعوب؟!

لكن هذه هي الأم، ينبغي عليها أن تقدم ما لا تملكه كله لأطفالها، ومن دون مراعاة لمستوى الظروف..

كان يوسف يقود السيارة بغضب..

يصرخ غاضبًا بسبب الكاميرات الموجودة في ممرات الفندق والسلالم..

فلم يكن يتمنى أن يتورط في جريمة قتل في هذا التوقيت على الأقل؛ لأن رجال الأمن سيرفعون من كفاءة بحثهم وجهودهم ضده، قال لي ساخرًا من واقعه وهو في عز غضبه:

- يا سلام، الآن يبحثون عن قاتل برفقة سارقة ومروجة مخدرات.

الحقيقة شر البلية ما يُضحك فعلًا.. ما هذه المصائب التي تتلقفنا من كل صوب وبلا توقف؟

كلما شعرنا بأن الهدوء قد اقترب.. هبت عاصفة أنهت تلك البوادر كلها..

حاولتُ تهدئته وأخبرتُه عن تواصلي مع زميلي كريم ووعده لي بالمساعدة، فوجدتُه قد أوقف السيارة على جانب الطريق فورًا بعد أن دعس المكابح فجأة وبقوة مفرطة.. قبل أن يلتفت إليّ ويسألني غاضبًا:

- مَن كريم؟

- زميلي في المقهى بالعاصمة الماليزية.

- هل أخبرتِه عن مكان الفندق؟

- نعم.. وما المشكلة في ذلك؟

ضرب يديه بقوة على المقود ثم صرخ قائلًا:

- لماذا يا ليلى؟ لماذا استخدمتِ الهاتف؟

- وما المانع؟

- الآن علمتُ كيف تمكنوا من تحديد موقعنا.

كان يعتقد أن لقمان وجماعته لديهم القدرة على تحديد موقعنا من خلال هاتفي..

تمامًا مثلما فعلوا مع شقيقه الذي استدرجوه بالطريقة نفسها بعد إجراء مكالمة مطولة معه..

ومن ثم انقضوا عليه وخطفوه ومن ثم قتلوه.. أكاد أجن، هل يعقل أننا محاصرون إلى هذه الدرجة؟!

هذا جنون.. هذا بلاء حقيقي لا يحتمله عقلي البسيط المثقل بالهموم..

طلب مني أن أتخلصَ من شريحة هاتفي فورًا، ودون نقاش، ثم أخرج من جيبه العديد من شرائح الهاتف المحلية وقدمها لي..

استخدمها في الاتصال عند الحاجة فقط، ومن ثم التخلص منها

في كل مرة مجددًا..

والحقيقة الرعب الذي تشكل في قلبي من بعد حديثه هذا، جعلني أستجيب لطلبه وأخرج الشريحة مباشرة ومن ثم ألقي بها إلى الخارج فوراً واستبدلها بأخرى..

ولكن للأسف هناك أمر ما.. بتال لم يكن على ما يرام!

بدا جليًا أنه قد دخل في حالة نفسية سيئة.. لاحظتُ ذلك من خلال نظراته والتفاتاته تجاه مصدر أي صوت قد يظهر فجأة.. كنتُ أُقدِمُ جاهدة على احتوائه.. لكن المواقف المفاجئة في رحلتنا المجهولة كانت أكبر من قدراتنا جميعًا، ولم يكن أمامنا سوى مواصلة التقدم إلى الوجهات غير المعلومة..

فلممنا شتات أنفسنا ثم واصلنا الطريق في تلك الليلة الظلماء..

أثناء انشغالنا بالطريق..

وبينما كنتُ أحضنُ ابني بتال الذي كان قد خلد إلى النوم بعد أن هدأ قليلًا..

دار حوار بيني وبين يوسف.. كان يسألني عن زميلي كريم، وكنتُ أخبره عن شهامته ووقفاته المتكررة معي، الحقيقة لا ألوم يوسف.. فهو لا يعرفه ولم يسبق له اللقاء به.. وفي مثل هذه الظروف العصيبة التي نخوضها، لا مكان للأخطاء أو الاستعانة بالأشخاص الخطأ..

بدا لي أنه قد استحسن الأمر.. كان قد اطمأن من حديثي بعض الشيء.. لكنه طلب مني الحذر..

وألا أتصرف أي تصرف إلا باستشارته أو بالرجوع إليه، ولم أكن عنيدة..

كنت أتفهم الأمر وخطورة المرحلة، وبينما كان الهدوء سائدًا، ويتخلله صوت احتكاك عجلات السيارة.. ظهر صوت سعال!

كان يرتفع للحد الذي أقلقني.. ابني بتال ليس على ما يرام..

حاولت تهدئته بمسح جبينه بيدي اليمنى.. لكنني أحسست بالكثير من العرق..

كان يزداد شيئًا فشيئًا، حتى بدأ يرجف بين يدي.. الحقيقة لم أتمالك أعصابي فأخبرت يوسف بما لاحظته وأنا متوترة جدًا.. فطلب مني الهدوء.. ثم أوقف السيارة على جانب الطريق وترجل منها؛ حتى يقترب من الباب الخلفي ويتأكد بنفسه، نظر إليه برفق ولمس جبينه الندي..

هنا أدرك أن ما بطفلي لم يكن عرضيًا، بل نوع من التوعك المقلق..

عاد ليقود السيارة وهو يخبرني أنه ينبغي عليه الذهاب إلى أقرب طبيب..

كنت أحاول أن أغسل وجه بتال على فترات متقطعة، وأحاول أن أحضنه بجسمي وبداخل ملابسي حتى أخفف من رجفته، وكنت أدعو الله بالكلمات كلها التي أحفظها حتى يحفظه لي..

وبعد مرور وقت شبه طويل لم أحسبه..

توقفنا عند عيادة صغيرة في أحد الشوارع.. اقترب يوسف وحمل

ابني وتوجه إلى الداخل مسرعًا..

وكنت أتبعه والخوف يسيطر عليّ.. استقبلته ممرضة وتلقفته منه ووضعته على السرير في غرفة الطوارئ الصغيرة..

كانت عيادة بدائية بعض الشيء.. وضعوا على جبينه كمادات باردة وكنت أراقب المشهد وكفا يديّ متلاصقتان ببعضهما ومثبتتان على منتصف فمي، أتمتم بالدعاء وأنا في قمة عجزي..

كان يوسف يقف إلى جانبي ويحاول جاهدًا احتواء توتري المرتفع جدًا..

ويكرر لي بأن كل شيء سيكون على ما يرام..

دقائق حتى حضر الطبيب، وقام بفحص بتال وأمر بإعطائه إبرة علاجية..

وطلب تبديل الكمادات باستمرار إلى أن تنخفض الحرارة..

لاحظ خوفي المفرط فاقترب مبتسمًا وطمأنني بأن الأمر مجرد حمى قوية قد أصابت جسم ابني النحيل..

وسيكون بخير بعد أن يسري مفعول الدواء في جسمه..

خففت كلماته بعض الخوف وليس كله، وكان ذلك مهمًا حتى لا أفقد قواي كليًا..

بقينا على هذا الحال؛ حتى شعرنا أن بتال قد استعاد بعضًا من عافيته..

تنفسنا جميعًا الصعداء، ذهب يوسف كي يحضر الدواء من

الصيدلية ويدفع التكاليف عند الاستقبال..

ولكنه بعد دقائق عاد مرتبكًا بشكل ملحوظ ليطلب مني مرافقته فورًا وبهدوء!

تبعثه مستغربة من طلبه، فأوقفني وطلب مني النظر إلى شاشة التلفاز الصغيرة التي كانت معلقة في زاوية من زاويا مدخل العيادة..

ضُعقتُ مما شاهدتُه وشعرتُ أن هبوطًا حادًا قد انساب في عروق جسمي فجأة!

صورتي وصورة يوسف تظهران على الشاشة في خبر تحذيري مفاده بأننا شخصان هاربان ومتورطان في عملية قتل وتهريب مواد ممنوعة!!

لم يمهلني حتى تكتمل صدمتي ووجدتُه يسحبني من يدي ويُدخلني إلى حيث كان بتال ممددًا..

طلب مني التماسك والهدوء ولو بعض الشيء، لكنه كان يطلب مني المستحيل..

حمل بتال وطلب مني اللحاق به بسرعة، ثم توجهنا إلى السيارة وغادرنا دون أن يلاحظ أحدهم وجوهنا..

للأسف منذ أن بدأت المصائب تتوالى وهي لا تقل؛ بل تزداد وتتفاقم..

وهذا الأمر الخطير كان يُحبطني جدًا، ويسحق بوادر التفاؤل بداخلي، الأمر يزداد خطورة..

ففي كل خطوة نُقدم عليها من أجل النجاة.. أجدنا قد وقعنا في ورطة أكبر تزيد من فرص السقوط الحتمي!

كان يوسف صامتًا على غير العادة.. شعرتُ أنه قد فقد القدرة على التفكير..

والحقيقة لا ألومه.. جاء منتقمًا لمقتل شقيقه وفي طريق انتقامه التقاني..

كنتُ في حفرة الموت التي ظننتها بيتًا وأمانًا؛ فأخرجني وركض بي، ليجد نفسه متورطًا فى مهمة إنقاذى..

وملوثًا بجريمة قتل لم يسعَ إليها؛ بل وجدها في طريقه بسببي أنا وابني..

وبعد نصف ساعة من القيادة المستمرة..

وجدتُه يأخذ يمينًا ويتوجه إلى منطقة تجمع لبعض المحلات والمطاعم..

أوقف السيارة بالقرب من حوش قديم، وطلب مني النزول والابتعاد مع بتال..

ثم توجه نحو سيارة مغطاة بغطاء متسخ يكسوه الغبار، ونزعه من فوقها ثم حمله عائدًا إلينا..

وغطى به سيارتنا جيدًا، ثم طلب منا أن نتبعه سيرًا على الأقدام..

سألته بعفوية وقلق واضح:

- لماذا نترك السيارة هنا؟

أجابني وهو يُسرع بخطواته:

- أصبحت محفوظة لدى الجهات الأمنية، واستخدامها في التنقل قد يُسهّل سرعة العثور علينا.. علينا الاستعانة بغيرها وفورًا.

ملاحظة مهمة لم تخطر على بالي قَط، كنتُ أمشي وأنا أخشى على ابني المرهق الذي لن يحتمل هذا المجهود حتمًا، فهو لم يتماثل إلى الشفاء بعد، ولكن الخبر المفرح أن هذا المشي لم يدم طويلًا..

طلب يوسف منا البقاء وانتظاره في إحدى الزوايا للبنايات الصغيرة.. ثم توجه إلى منطقة تكتظ فيها سيارات النزلاء ومرتادي المطاعم، وبعد قرابة الربع ساعة.. عاد إلينا بسيارة أخرى، وطلب منا الركوب بسرعة.. ولم نتردد في فعل ذلك.. وغادرنا كعادتنا هاربين.. سألته وهو منهمك في القيادة:

- هل سرقتها؟

نظر إلى وجهي من خلال المرآة العلوية، ثم أجابني ساخرًا:

- لا لقد اشتريتها، هل أعجبتكِ؟

- هل تستهزئ بحديثي؟

- نعم أنا أفعل ذلك، الذي يقتل من أجل النجاة، لا يتردد في استخدام بقية الطرق من أجل المحافظة عليها، نحن في ورطة لم نختر تفاصيلها القذرة؛ لذلك يحق لنا فيها فعل أيّ شيء، واستباحة كل شيء.

أخرسني بواقعية حديثه.. لم أتمكن من الرد، ولوهلة نسيتُ جريمة

القتل التي خضنا تفاصيلها..

يبدو أن خوفي على ابني ووعكته الصحية الطارئة قد أشغلني عن تلك التفاصيل المرعبة..

ولكن بقايا الإنسان الذي بداخلي كان يرفض فكرة السرقة بشكل لا إرادي.. لكنني أصبحت أتقبلها وكأنها وغيرها من الحلول البشعة هي الوسائل الممكنة من أجل النجاة هنا في هذا المكان، ويا للأسف! وجدتُ نفسي أعيش تفاصيل لا تشبهني..

الظروف الطاحنة المتتالية هي ما فرضت عليّ هذا الواقع البائس كله..

لم يخبرنا يوسف عن وجهتنا القادمة..

وبعد أن قطعنا أميالًا لا بأس بها.. توقفنا عند غرف قديمة يتم تأجريها بالساعة..

بدا لي ومن أشكال المرتادين لها بأنها غرف لممارسات ليست أخلاقية!

طلب مني النزول لكنني رفضتُ وطلبتُ منه أن يغير المكان.. لكنه كان مُصرًا بحجة أن هذا المكان العشوائي هو آخر مكان من الممكن أن يتوقع رجال لقمان أو حتى رجال الأمن وجودنا فيه..

ووعدني بأنها مجرد ليلة فقط ومِن بعدها ستصبح الأمور أفضل بكثير..

وما بين محاولات بالرفض من قِبلي، ومحاولات بالإقناع من قِبله..

رضخت للأمر الواقع كعادتي، ودخلنا بحذر وارتباك واضحين..

أدخلنا إلى غرفة صغيرة وأصر على أن يحجز الغرفة الملاصقة لنا كعادته، كان مطمئنًا على وضعنا كما بدا لي من ملامحه.. رائحة الممر تختصر معاني القذارة كلها.. لا أعلم كيف يحتملون ذلك؟!

حاولت أن أقنع يوسف بتغيير المكان لكنه لم يكن مهتمًا لذلك..

فما يهمه كله هو سلامتنا والتخفي عن ملاحقة المجرمين لنا..

بدأت أتأمل الغرفة، نظرة سريعة على المكان..

كنت على وشك أن اتقبل كل هذا الوضع المقيت للنفس..

حتى ظهر أمراً أكرهه كرهاً لا يمكن وصفه.. كائن الوزغ مرة أخرى!

لا لا لا.. لا يمكنني تقبل هذا الوضع.. شعور القشعريرة لم يمهلني لحظة..

حاولت المغادرة لكن يوسف قام بمنعي.. وطلب مني التماسك وتجاهل الأمر..

حيث أخبرني أن الوزغ كائن جبان.. ولا يحب الاقتراب من البشر..

لذلك تجاهله هو الحل الأمثل في مثل هذه الظروف السيئة التي نمر بها..

أجبته وأنا أحاول تمالك نفسي حتى لا أخرج ما بداخل معدتي على وجهه:

- لا أبالغ أن أخبرتك بأن كل الظروف السيئة بالنسبة لي في كفة..

والتعامل مع هذا المخلوق المقزز الحقير البشع في كفة أخرى.

نظر إليّ وهو يحاول أن يكتم ضحكته كما بدا لي.. ثم قال:

-ليلى.. لا مجال لسيطرة الرغبات والمشاعر على قرارتنا..هل تقبلين أن تنتهي حياتكِ وابنكِ بسبب وزغة؟!

تساؤله الساخر كان لائقاً على حالتي المزرية في تلك اللحظة..

ولم أكن أملك سوى الصمت والتوجه إلى المرحاض حتى أنهي معاناتي..

حدث ذلك وسط نظرات ابني بتال الذي لم يكن يملك تقديم غيرها..

أخبرني يوسف بأنه سيذهب لإحضار بعض الأغراض.. وسيعود في أقرب وقت..

وطلب مني إغلاق الباب جيدًا، ثم غادر مسرعًا..

كانت الرائحة لا تُطاق، شكل الأثاث قديم ومستهلك بشكل لا يليق..

لكن كان يجب عليّ تقبل الواقع.. فتحتُ النافذة لعل أن يجدد الهواء الخارجي رائحة المكان..

لكنني وجدتُ أن بقعًا من المياه الملوثة قد تجمعت في الخارج بمحاذاة المبنى..

فإن تمر من جانب بقعة نتنة من مياه المجاري وارد جدًا، وأمر يمكن أن تقاومه وتحتمله حتى تعبر من محيط انتشار الرائحة..

لكن أن تبقى أسيرًا في المكان نفسه ولفترات طويلة وغير معلومة النهاية..

هو أمر يفوق قدرات الإنسان الطبيعي..

كنتُ وابني بتال نستنشق الرائحة استنشاقًا لا يمكن وصفه، ومهما حاولتُ أن أغلق فتحتي أنفي..

أو فعل أي شيء ممكن، فلن أنجح في صد اختراق انبعاثها وتسلله من خلالهما..

فقدتُ السيطرة على التأقلم وكذلك ابني بتال الذي كان يضع وجهه في منتصف صدري..

وكأنه يهرب من واقع الهواء النتن، حتى وجدت نفسي أبعده وأتقياً باندفاع، هنا لم يحتمل هو ذلك.. وشاركني التقيؤ أيضًا..

وخلال قرابة الساعة، عاد يوسف وهو يطرق الباب..

دخل علينا بعد أن أغلقه وهو يحمل أكياسًا.. ولكن لم أتعرف على وجهه في البداية!

لقد كان حليقًا حيث لم يترك على وجهه أية شعره، لم أتمكن من السيطرة على ضحكاتي..

وسط نظرات بتال المندهش من المنظر.. لقد كان شكله مضحكًا فعلًا..

قابل ردة فعلي بنظرات ساخرة وهو يحاول السيطرة على ابتسامته هو أيضًا، لكنه فشل في ذلك وأطلق ضحكاته..

كان شكله مضحكًا فعلًا.. لكنني لاحظت ارتداءه لملابس جديدة وغريبة لا تتناغم مع شكل جسمه!

ثم أخرج من الكيس ملابس جديدة لابني بتال وقبعة وطلب منه أن يرتديها بشكل مستمر عند تنقلاتنا..

ثم أخرج ملابس لي وطلب مني أن أرتديها..

قبل أن يُخرج حجابًا لونه أحمر داكن وقدّمه لي وهو يضحك قائلًا:

- انتهى وقت الحرية، حجابكِ نجاتكِ.

- نعم! ولماذا أتحجب؟

- حتى لا تلفتين الانتباه، خصوصًا انتباه لقمان ورجاله.

بمجرد ذكر اسمه، وجدتُ نفسي اسحب الحجاب من يديه وأتقبل الفكرة فورًا..

طلب منا تبديل الملابس فورًا وخرج حتى ينتظرنا خارج الغرفة، فلم يكن مني سوى الاستجابة..

وبعد أن قمت بذلك أنا وبتال.. عاد ليدخل علينا.. فأطلق ضحكاته المستفزة على مظهري الجديد بالحجاب، فلم أكن أجيد ارتدائه بالشكل الصحيح.. والحقيقة لم يكن وحده مَن يضحك..

حتى ابني بتال كان يشاركه الضحك.. لقد عادت الابتسامة إلى وجهه أخيرًا.. ولكن على حسابي..

أكاد لا أصدق..

يبدو أنه قد تأقلم مع واقعنا الجديد حتى التبلد، لقد أفرحني جدًا وهو يفعل ذلك..

حتى قمت بحضنه بقوة، أحدهم يُغنيك عن العالم، ابتسامته تخبركَ أن الكون -ما زال- بخير..

وغيابها يشعركَ أن الجميع مكتئب، هو المقياس في كل شيء، هو الأساس..

كان موقفًا شاعريًا في توقيت غير متوقع، وظرف لا يوحي بأيّ مظهر من مظاهر السعادة..

تفاعل يوسف مع الموقف فحاول تلطيف الأمر وهو ينظر إليّ قائلًا:

- مظهركِ جميل... أنا فقط أضحك لأنها المرة الأولى.

أرسلتُ إليه نظرة حادة مغلفة ببعض الامتعاض وأنا أرد عليه قائلة:

- المحتاج يلجأ إلى التمسك بالقشة في عرض المحيط.

حينها طلب مني طلبًا غريبًا؛ أخبرني عن ضرورة التقاط صور لي ولابني وله حتى يستخرج لنا أوراقًا وبطاقات شخصية ثبوتية نستخدمها طوال فترة تنقلاتنا؛ فسألته مستغربة:

- لماذا... طالما نملك إثباتات فعلًا؟

- أسماؤنا الحقيقية مطلوبة... يجب أن نتنقل بأسماء أخرى.

- تزويرا

- أتفهم استمرار اندهاشكِ تجاه كل خطوة نُقدم عليها من أجل

النجاة، لكنه مضحك وغير مبرر في هذا التوقيت، هيا لا نملك الوقت الكافي.

استعان بلحاف أبيض وقام بتعليقه كخلفية للصور، ثم أخرج هاتفه..

وبدأ في تصويري ثم في تصوير ابني بتال قبل أن يطلب مني تصويره، وبعد أن اكتملت الصور..

طلب مني البقاء هنا وعدم مغادرة الغرفة أبدًا حتى يعود..

ثم سلمني قفلًا كان قد اشتراه وأخبرني عن ضرورة وضعه بإحكام على الباب..

هذا الطلب أقلقني جدًا من المكان.. لكنه طمأنني بأنها مجرد احتياطات حتى يطمئن على وضعنا أثناء غيابه المؤقت..

ثم غادر وتركني في مستنقع حيرتي وبرفقة ابني.. لم أستوعب الأمر، لأول مرة في حياتي أكون شريكة في عملية تزوير. هي جريمة جديدة تُضاف إلى سلسلة الجرائم المتنوعة في رصيدي الذي فُتح عداده منذ أن وطئت قدماي هذه البلاد للأسف..

الحقيقة لم أتمكن من النوم قَط.. حتى بتال لم يكن مرتاحًا للمكان..

فبخلاف الرائحة التي لا تنقطع، كانت هناك تلك الأصوات التي تخترق غرفتنا..

لم تكن تسمح لنا بالاسترخاء قَط، أحدهم يضحك بصوت مستفز،

وآخر يتشاجر بطريقة تُربك مَن يسمعها، وآخر يتألم بطريقة مقززة لأسباب لا داعي لذكرها..

بقينا على هذا الحال قرابة الست ساعات.. حتى أشرقت الشمس..

وبدأ الإرهاق يتمكن مني ومن بتال، لكن الفرج يبدو أنه قد حضر؛ عاد يوسف أخيرًا..

ولكنه كان ينزف من كتفه الأيسر!

دخل وهو بالكاد يحمل جسمه على قدميه ثم رمى بنفسه على الأريكة وطلب مني إغلاق الباب فورًا..

وصرخ متألـمًا:

- احضري اللحاف الأبيض من على السرير، أسرعي.

قمتُ بذلك والارتباك يسيطر عليّ ولست مصدقة لمنظر كتفه، سألته عمّا ألّم به..

لكنه تجاهلني وهو يحاول ربط اللحاف على موضع الإصابة، ويحاول ألا يرفع صوته بسبب الألم حتى لا يلفت الانتباه إلى غرفتنا.. كان ذلك على مرأى ومسمع ابني بتال الذي لمست من ملامحه قوة اندهاشه من شكل الدماء التي تشربت اللحاف بعد أن لفّها يوسف حول كتفه المصابة..

لاحظ يوسف ذلك فقاوم الألم وبدأ يبتسم وهو يقول لبتال حتى يطمئنه:

- جرح بسيط وسأصبح جيدًا، لا تقلق يا صديقي.

لكن الخبر السعيد والذي جعل يوسف يتحدى الألم ويتجاهله قليلًا؛ هو أنه قد نجح في الحصول على الإثباتات الجديدة، كان يحمل البطاقات في يده ويلوّح به كما لو أنه منتصراً قبل أن يضعها بين يدىّ..

وبدأت أفحصها بعينيّ غير مستوعبة لمطابقتها للحقيقة:

(نهاد عبدالكريم)؛ كان اسمي الجديد، وابني بتال اسمه (ريان)..

وأمّا يوسف فقد كانت تحمل بطاقته اسم (فريد)!

ذلك كله كان أمرًا يُمكن تقبله، حتى قدّم لي البطاقة الأخيرة، كانت بطاقة عائلية خليجية..

تجمع أسماءنا الثلاثة؛ أنا ويوسف زوجين وبتال ابننا، نظرتُ إليه مندهشة ولم يترك لي فرصة للحديث حيث برر لي مباشرة:

- لا حل أمامنا، سوى أن نظهر في العلن كعائلة بمظهر مختلف وبأسماء مختلفة.

الحقيقة كنت عاجزة عن الحديث..

فنظرتُ إلى بتال ووجدتُه يبتسم لنا وهو يشير بإبهام يده اليمنى، قاصدًا تقبله للفكرة..

هنا نهض يوسف من على الأريكة وهو يحاول السيطرة على تغير ملامحه بسبب الألم..

ثم توجه إلى بتال للمرة الأولى وقام بحضنه وهو يضحك، ثم قال:

- تعلّمي من ابنكِ سرعة وسهولة تفهم الأمور، هي مجرد أوراق

مزورة، لا تقلقي يا ليلى.

كان يوسف يستميت لخلق أية فرص تساعدنا جميعًا على النجاة، لا يركن إلى الواقع ولا يرضخ له..

ولا حتى يعترف بالسقوط، علمت يقينًا بأنه من الخطأ التعذر بالظروف، فالجميع لديهم نصيبهم

من العقبات، قد لا يمكنك أن تلغي مسار النهر المندفع، لكن يمكنك أن تجد بعض الحلول حتى تعبره!

طلب أن يبقى هذا الأمر سرًا بيننا، وحذرني من الكشف عن الأمر من خلال أية مكالمة..

حتى لا يصل الخبر إلى لقمان بأية طريقة ممكنة، فهذه الإثباتات هي طوق النجاة الذي سيسهل علينا الخروج من هذا الجحيم.

ولكن، كان يوسف -ما زال- يتألم، فسألته بعد أن اقتربتُ منه عما حدث معه؛ فأجابني إجابة أرعبتني كثيرًا:

- للأسف صادفتهم أثناء عودتي، يبدو أن أحد رجالهم قد تعرف عليّ أو ربما قد أخبره أحد تجار التزوير عن وجودي عندهم.. لا أعلم.

- وماذا حصل بعد ذلك.

- كان يتتبعني حتى اقترب مني وأطلق النار، ومن حسن حظي أن الرصاصة لم تستقر في كتفي؛ بل جرحته فقط، لكنه جرحًا ليس بسيطًا على ما يبدو والأهم أنني تمكنتُ من التمويه والهرب ثم تسللتُ إلى السيارة وغادرتُ.

كان يتحدث وكأن الخمول قد بدأ يتوغل من بين عروقه..

وجدته يشعر ببعض الدوار، وما أقلقني.. هو التعرق الذي كان يتشكل على جبينه بشكل ملحوظ..

لن أقف مكتوفة الأيدي هكذا.. لطالما كان يخاطر من أجلي أنا وابني؛ لذلك أحضرتُ له بعض الماء وقمتُ بغسل وجهه مرارًا حتى استعاد وعيه بعض الشيء..

ثم طلبت منه مفتاح السيارة.. استغرب من طلبي وسألني عن السبب؛ فأخبرتُه بأنني سأذهب إلى أقرب صيدلية حتى أحضر بعض المعقمات والأدوات الطبية اللازمة لتضميد جرحه؛ فرفض الفكرة مباشرة..

وأصر على رفضه..

لكني أصريتُ على موقفي، فالجرح لا يحتمل البقاء بهذا الحال، ولا أريده أن يتلوث..

ومن ثم قد يفقد قوته، فبقائه قويًا مهم جدًا من أجلنا جميعًا..

المهم لقد رضخ إلى قراري، لكنني وجدتُه يسرد لي الكثير من التعليمات والتحذيرات..

كان قلقًا من ذهابي وحيدة، لكن لم يكن هناك أي خيار آخر، طلبتُ من ابني بتال أن يجلس معه وألا يبتعد عنه أبدًا، ثم غادرتُ مسرعة وبحذر..

وبعد أقل من عشر دقائق.. وجدتُ صيدلية على زاوية أحد

الشوارع الصغيرة..

أوقفتُ السيارة ثم دخلتُ واقتنيتُ بعض القطن والشاش، والمعقمات وجميع ما قد نحتاجه..

ولكن حدث أمر ما؛ فبينما كنتُ أتجول بين الرفوف..

لاحظتُ وجود رجلين غريبي الهيئة يراقبان سيارتي المركونة في الخارج!

أثارت وشومهما المزخرفة على جسميهما قلقي، وأرعبني الشر الذي طبع ملامحهما بكل وضوح..

التفتا إلى باب الصيدلية وقررا الدخول، وكعادة الرعب في مثل هذه المواقف كان كريمًا معي؛ فوجدتُ نفسي اختبئ واخفض جسمي كاملًا.. لاحظ الصيدلي ذلك ثم التفت إلى الرجلين وهما يدخلان بطريقة فظة، وعاد لينظر إليّ؛ فأشرتُ إليه مرعوبة وأنا أتوسل لأن يحميني منهما؛ ففَهم إشارتي وتصرف بسرعة بديهة.. حيث خرج من وراء الطاولة وبادر بالسؤال عما يريدان..

تلعثما من جرأته قبل أن يسأله أحدهم عن صاحب السيارة التي تقف في الخارج..

لم أكن أفهم لغتهم لكنني كنتُ أنظر إلى تعابير وجه الصيدلي وحركات يده؛ ففهمتُ أنه كان يشير إليهما نحو الأعلى.. وكأنه يقول إن مَن تبحثان عنه قد صعد إلى الطابق العلوي للمبنى..

وبعد أقل من دقيقة غادرا الصيدلية..

وشعرتُ بأن الهواء كله الذي بداخلي قد خرج وهو يحمل الحرارة كلها التي خلفّها الغليان الذي كنتُ أعيشه حينها.. طلب مني عدم النهوض.. ثم ظل يراقب الشارع حتى تأكد من ابتعادهما..

وأعطاني الإشارة للمغادرة فورًا، شكرته كثيرًا، ثم أردتُ أن أدفع ثمن الأغراض..

لكنه رفض، وطلب مني الإسراع في المغادرة، وعندما سألته عن سبب تعاطفه معي؛ أجابني مختصِرًا:

- هؤلاء المجرمون لا أحد يتقبلهم، وملامحكِ الغريبة عن المكان تجبر أي شخص مكاني أن يتعاطف معكِ، ويغامر بإنقاذكِ، غادري بسرعة قبل أن يعودا.

يبدو أن الجميع يعاني من هذه العصابات الحقيرة..

غادرتُ مسرعة وعدتُ إلى حيث ينتظرني يوسف وابني، ثم قمتُ بمحاولة تعقيم الجرح وتضميده وأنا أقاوم ارتباك يدي، فهذه هي المرة الأولى التي أتعامل مع جرح دامي كهذا..

لاحظ يوسف ذلك، فطلب مني التماسك وهو يحاول أن يتظاهر بعدم شعوره بالألم..

كان لا يريد أن يُظهر ضعفه أمامي، ولا يريد أن نفقد الثقة فيه..

سألني حتى لا يشغله الألم إن كنتُ قد واجهت أية صعوبات في الخارج؛ فأخبرتُه عن ذلك الموقف بالحذافير وعن موقف الصيدلي النبيل معي، وأكدتُ له أنني أوقفتُ السيارة في الشارع الخلفي البعيد حتى لا يتعرفون على مكان وجودنا.. هنا اطمأن يوسف

وأشاد بتصرفي الذكي..

قررنا أن نأخذ قسطًا من الراحة، قبل اتخاذ قرار مغادرة هذا المكان المشبوه في الوقت المناسب فيما بعد..

نهض يوسف وغادر إلى غرفته..

وتمددتُ بجانب ابني لعل وعسى أن أخلد إلى النوم، كنتُ أحاول ذلك متجاهلة رائحة المكان..

وكذلك رائحة الفراش النتنة، وتحركات بعض الوزغ على أطراف السقف..

وقبل ذلك، قررتُ أن أرسل رسالة إلى كريم حتى أعلمه عن رقم شريحتي الجديدة..

كي لا يقلق من غيابي.. وبمجرد أن قمت بذلك، وجدته يتصل عليّ مباشرة؛

أجبته وقد كانت المفاجأة.. كريم وصل إلى ميانمار صباح اليوم.. فرحة كبيرة قد حلت عليّ بمشاعر لا يمكن وصفها.. شعرتُ بالأمان الذي كنتُ أفتقد إليه منذ مدة طويلة لقد كان صادقًا في وعوده..

حضر مخاطرًا بعمره ومكبلًا بالتكاليف كلها؛ كي يساعدني في الخروج من هذا الوحل الذي وجدتُ نفسي أغرق فيه برفقة ابني..

لم نطل في الحديث واتفقنا أن نلتقي به في اليوم التالي عند الساعة العاشرة مساءً..

أنا وابني وبرفقة يوسف في مقهى من المقاهي التي كان قد حدد

لي اسمه وموقعه..

كي نتحدث عن التفاصيل..

وبعد أن أنهيتُ المكالمة لم أتمالك نفسي من الفرحة، تواصلتُ مع يوسف وأخبرتُه بما حدث..

الحقيقة لمستُ من نبرة صوته أنه لم يكن متقبلًا لهذه الخطوة، لكنه كان مجبرًا على الموافقة لعل وعسى أن نجد حلًا فعليًا، وقاطع حديثي وسألني سؤالًا مباشرًا:

- هل أخبرتِيه عن موقعنا؟

- لم يسألني... لماذا؟ هل تشك في أمره يا يوسف؟

- أنا لا أعرفه... لكنني سأثق بكِ هذه المرة، لكن يجب عليكِ تغيير الشريحة فورًا قبل أن تخلدي إلى النوم يا ليلى.

أتفهم طلبه، فتلك التجربة المرعبة مع المكالمة الماضية، كدنا أن ندفع ثمنها باهظًا لولا تدخل القدر؛

لذلك نفّذتُ ما طلبه مني مباشرة، وأخذتُ شوطًا لا بأس به من النوم برفقة صغيري بتال..

في اليوم التالي، وقبل الظهيرة تقريبًا..

طَرق يوسف باب غرفتنا، ففتحت له ووجدته يحمل بين يديه طعام الإفطار..

لقد حضر في وقته المناسب، كنتُ جائعة وحتمًا ابني كذلك، جلسنا سويًا لتناوله..

وكان الصمت حاضرًا وكأن الأحاديث قد شحت، لكن عقولنا المشحونة بالصخب الداخلي حتمًا لم تكن قد توقفت عن التفكير..

وبينما كنا نقترب من إنهاء ما يوجد أمامنا كله من طعام متنوع، وجدتُ يوسف ينظر إليّ نظرة غريبة..

ظل محدقًا بالنظر على غير العادة، وكأنه كان سارحًا، لكنه لاحظ استغرابي من تصرفه..

فتدارك الأمر ثم تساءل بصوت مسموع قائلًا:

- لماذا لا نعطي أنفسنا حقها من المتعة في دوامة هذه الرحلة المجهدة؟

- لم أفهم ماذا تقصد؟

أشار بأصبعه عبر النافذة الصغيرة نحو منطقة تعج بالبشر..

كانت تبعد مسافة ليست بعيدة عن المسكن المشبوه الذي نقطنه مجبرين..

بدا لي أنه سوق شعبي على ما أعتقد، ابتسم بتال بعد أن فَهم مقصده وأصبح يشير بإبهامه الأيمن معلنًا موافقته وإشادته بالفكرة، كان يوسف يريد أن نأخذ قسطًا من الترفيه..

لم أكن متحمسة، فالظرف -كما تعلمون- لا يسمح بذلك، لكن حماسة ابني الحبيب كانت قد أجبرتني على تقبل الأمر وعدم الممانعة..

تجهزنا جميعًا وارتدينا الملابس التي وفرها لنا يوسف.. حتى نظهر

بمظهرنا الجديد..

وتوليث أنا القيادة هذه المرة بسبب الألم الذي كان يمنع قدرة يوسف على الحركة بالشكل المريح..

ركب بجانبي وبقي ابني بتال في المقاعد الخلفية، طلب مني يوسف أن أوقف السيارة في الجهة المقابلة من الحي المكتظ بالبيوت الشعبية، ثم ترجل وطلب مني ومن بتال أن نتبعه فورًا..

كنّا نتجول سيرًا على الأقدام بين الزحام، ولاحظت أن الدراجات النارية يستخدمها الكثير من الناس هناك، كان خيار التجول ممتعًا رغم الظروف، فقد افتقدتُ إلى مثل هذه الأجواء في التسوق..

الأطعمة في كل مكان.. بعضها مألوف، والبعض الآخر لم أشاهده من قبل..

كان الجميع يصرخ ويسوّق بضاعته، والكثير من السياح الأجانب يتجولون ويتبضعون..

اقترب مني يوسف ثم همس لي وسط الزحام قائلًا:

- ستتذوقين أروع حلوى تنسيكِ مرارة ما سبق كله.

أضحكني حقيقة وجعلني أتحمس لاكتشاف صحة وصفه من عدمه، مع إيماني أن أطنانًا من السكر لن تنجح في التغلب على تلك المرارة المكثفة التي تشكّلت من وراء ما صادفته كله هنا..

وبالفعل واصلنا التجول في الممرات والتأمل في البسطات المتلاصقة، وما تحمله من خردوات ومنسوجات وأدوات.. حتى

وصلنا إلى محل صغير للحلوى، كان يقف به رجل ميانماري برفقة ابنته على ما أعتقد..

أشار يوسف للرجل على الحلوى المقصودة وطلب منه ثلاث قطع..

كانت عبارة عن كرات بيضاء صغيرة مغطاة بمبشور جوز الهند..

ابتسم الرجل مرحبًا بنا وقدمها لنا، تذوقتُ طعمها وقد كانت -فعلًا- لذيذة بشكل غير مفهوم..

طعم الحليب المخلوط بجوز الهند الذي أحبه منذ صغري كان ظاهرًا جدًا؛ لذلك لامس شيئًا ما بداخلي..

ابتسمت إلى يوسف وبادلني الابتسامة، أخبرني أنهم يطلقون عليها اسم (مونت لون ياي باو)(6).

لاحظ انبساط ملامح وجهي فتأكد أن طعمها قد أعجبني؛ فسألني ساخرًا:

- هل اختفى طعم المرارة كما أخبرتكِ؟

- سأجيبكَ بعد الوصول إلى تناول القطعة الثالثة على الأقل.

ضحك وعلم أنني أريد المزيد، التفت إلى بتال ووجدته يستلم نوعًا آخر من الحلوى من يديّ ابنة البائع.. كانا سعيدان وكأنهما عثرا على مَن يشاركهما العمر نفسه.. وبالتالي البراءة نفسها..

كانت لطيفة جدًا معه، وجميلة أيضًا، فمنذ فترة طويلة لم يختلط بتال مع أطفال يقاربونه في العمر؛

لذلك كان مبتهجًا، لاحظ الرجل الإرهاق على ملامحنا -وكان من

السهل ملاحظة ذلك- خصوصًا إصابة يوسف والشاش الملتف حول كتفه؛ لذلك سأله بالإنجليزية:

- من أية بلاد أنتم؟

نظر إليّ يوسف قبل أن يجيبه بابتسامة:

- نحن عائلة من السعودية.

الحقيقة كدت أن ابتسم وأفسد كذبته، لكنني تمالكت نفسي قليلًا..

رحب الرجل بنا وهو في قمة سعادته معللًا سر سعادته بنا؛ بأنه قلّما يلتقي بأشخاص من البلدان الخليجية

في هذا السوق، ثم التقط صندوقًا ورقيًا صغيرًا وبدأ في وضع أشكال متنوعة من الحلوى..

ثم قدمها لنا كهدية، حاول يوسف رفضها وأصر على دفع المال، لكن الرجل رفض رفضًا قاطعًا..

وهو يحدثنا بالإنجليزية البسيطة قائلًا:

- للتو عدت من المعبد القريب من هنا، كنت في جلسة للتأمل تعلمت فيها أن العطاء الصادق يجب أن يكون دون مقابل.

تبادلث النظرات مع يوسف وشعرنا أن حديثه قد لامسنا، ابتسمنا إليه متقبلين فلسفته..

ومتذكرين خصلة الكرم التي ننشأ عليها كعَرَب.. ثم أعاد يوسف المال إلى جيبه الجانبي..

حينها قاطع حديثنا صوت امرأة كانت قد فتحت الستار الخلفي والذي كان معلقًا خلف الرجل..

فابتسمت لنا ورحبت بنا، كانت تحمل ملامح بشوشة جدًا..

أخبرنا الرجل أنها زوجته وقد حان موعد الغداء، ثم طلب منا الدخول معهم إلى بيته المتواضع

والذي كان متصلًا بمحل الحلوى الصغير، لكننا اعتذرنا بلطف؛ فأصر الرجل وزوجته كي نلبي دعوتهما..

وبينما كنا نتجادل مبتسمينَ وجدنا أن ابنتهما قد أمسكت بيد بتال وسحبته معها إلى الداخل..

كان ينظر إلينا مبتسمًا وهو يرافقها دون ممانعة، ضحكنا جميعًا على الموقف..

وفي جزء من الثانية شعرت أن ملامح يوسف قد تبدلت ثم أمسك بيدي فجأة وقادني مسرعًا إلى الداخل بطريقة آلمت ذراعي!

لاحظ الزوجين تصرفه، واستغربت من تصرفه المفاجئ.. لكنه همس في أذني قائلًا:

- رأيتهم من مسافة بعيدة.. رجال لقمان يحومون في السوق.

تبددت راحتي النفسية المؤقتة كما لو أنها لم تكن، وعدت إلى الرعب الطبيعي الذي يرفض الفراق ومغادرة قلبي المضطرب دومًا، ضغط على يدي بقوة وأشار لي طالبًا مني الهدوء، وقد حاولت التظاهر بذلك.. ولكن.. وما أن دخلنا إلى الداخل وحاولنا التماسك

والهدوء..

حتى وقعت عيناي على أحقر الكائنات مجدداً.. وكأن هذا ما كان ينقصني حينها!

أن يظهر كائن الوزغ وكأنه يبتسم في وجهي ليخبرني أنه رفيق المنعطفات السيئة في مسيرتي المحفوفة بالمخاطر.. كان حجمه كبير جداً ويلتصق بالأعلى بشكل مقزز..

تمنيت لو أنني أملك كل الشجاعة لدقيقة واحدة فقط حتى أنقض عليه بقوة..

وأقوم بقتله بطريقة دموية لا تعرف الرحمة أفرغ بها كل تراكمات الحقد التي تشكلت في قلبي تجاهه..

لاحظ يوسف ذلك، وطلب مني الهدوء والتجاهل كما فعلت سابقاً..

فلا مجال للتصرف بغباء في هذا التوقيت الخطِر..

أتمنى ألا تسخروا من حديثي.. لقد كان أصعب اختبارٍ لي طوال هذه المغامرة..

فكل الخوف الذي عشته مما شاهدته من تلك العصابات الإجرامية.. لم يدخل إلى جسدي نفس ذلك الشعور المشمئز الذي ينفض جسدى بسببه كما لو أنه التماس كهربائى يضربنى

من الداخل ضرباً يجعلني أتراقص قرفاً.. اللعنة ثم اللعنة ولا أملك قول سوى ذلك..

حاولت التجاهل لعل وعسى أن يمر هذا الوقت العصيب..

ما خفف عني بعض الأمر، هو انسجام بتال برفقة البنت الصغيرة..

كانا يلهوان ببراءة على الرغم من الفوارق في اللغة والنشأة، فلا يجمعها سوى الطفولة الطاهرة التي لم تتلوث بعد بدنس الحياة..

جلسنا في زاوية إسمنتية على الأرض، ثم قدموا لنا الوسائد حتى تستند ظهورنا عليها..

كان البيت متواضعاً جداً؛ مطبخ صغير وبجانبه ممر يؤدي إلى باب خلفي يؤدي إلى الشارع الخلفي..

وعلى يساره غرفة صغيرة ودورة مياه بسيطة الأدوات..

أحضرت زوجته اللطيفة صحنين من الطعام وبرفقته أرز أبيض، كانت مكوناته ليست مفهومة بالنسبة إليّ، لكن رائحته شهية، طلب منا الرجل تناول الطعام بعد أن شرح لنا عن مكوناته وبكل فخر.. حين قال:

- تعمدت وأصررت على مشاركتكم لنا طعام الغداء لأن زوجتي قد طهت لنا هذا اليوم وجبة خاصة نحبها في ميانمار، هذا الطبق نسميه موهينغا(7)

يبدو أنها فرصة نادرة بالنسبة لي أن أتعرف فيها على بعض الثقافات الميانمارية..

فمنذ أن وصلت لم أتمكن من التجول بأريحية أو حتى أن أجد فرصة أكتشف فيها طبيعة سكانها..

للأسف بسبب تتابع المصائب التي تتوالى عليّ.. أوشكت أن أؤمن

بأن في هذه الأرض لم يولد فيها سوى الشر.. حتى صادفت هذا الطيب وعائلته الطيبة؛

فتجددت بداخلي تلك الحقيقة التي أؤمن بها.. بأن الأخيار في كل مكان وطبعهم هو الأساس في البشر،

وأما الأشرار فهم قلة القلة، ولكن بشاعتهم المفرطة تحجب كل بارقة أمل في الخيرا

لمست من الرجل وزوجته معاملة تفيض بالعطف.. أخلاقهم عالية إلى مرحلة لم أصادفها من قبل..

وتلك هي نشأة ابنتهما الصغيرة ولا عجب في ذلك..

تناولنا الطعام والذي كانت كميته ليست كبيرة، لكنه كان مباركًا بسبب الروح الطيبة التي تملأ المكان البسيط.. كنا نفعل ذلك والقلق لا يفارقنا.. فما زال أمر العصابة في الخارج يسيطر على تفكيرنا..

وبعد مرور قرابة الساعة من خلق الأحاديث غير المهمة من قِبل يوسف بغرض تعمد إضاعة الوقت حتى نضمن ابتعادهم، انتهى ذلك اللقاء غير المرتب له بصناعة ذكرى طيبة لن أنساها ما حييت..

وودعناهم وقررنا المغادرة.. ولا أنقى من وداع الطفلة لصغيري بتال..

كنا نبتسم جميعًا.. طلب يوسف من الرجل أن يسمح لنا بالمغادرة من الباب الخلفي..

بحجة قرب السيارة من الشارع، ولم يمانع بذلك، وقد كان..

توجهنا نحو الموقف مسرعين، ولكن كانت المفاجأة غير المتوقعة بانتظارنا!

بعض الرجال الذين يمتطون دراجاتهم النارية كانوا يقفون بجانب السيارة!!

أوقفنا يوسف وطلب منا التراجع فورًا والتوجه إلى الطريق المؤدي للجهة الأخرى من السوق..

ولم نتردد في تنفيذ طلبه فورًا.. قطعنا مسافة لا بأس بها حتى أوقفنا سيارة أحدهم..

وطلبنا منه نقلنا إلى نهاية الشارع ولم نناقشه في السعر..

ولم يمانع حتمًا بحثًا عن رزقه من السياح كعادتهم هناك.. لقد نجونا بأعجوبة ولم يلاحظنا أيّ منهم..

عدنا إلى تلك المساكن المشبوهة حتى نتوارى قليلًا ونأخذ قسطًا من الراحة..

إلى أن يقترب موعد اللقاء بزميلي كريم كما اتفق معي على الموعد المحدد مسبقًا.

من غرائب هذه الدنيا..

أن هناك مَن يستخدم فعل الخير..

من أجل العبور إلى تحقيق الشرا

اقترب الموعد كي نترك ذلك المكان المشبوه..

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً.. كان لا بد أن نغادر..

كررنا ارتداء الملابس الجديدة نفسها.. فقد أصبحت جزءًا من تفاصيلنا الاعتيادية..

وبدّل يوسف الضمادة جيدًا من على جرحه المستقر، وتوليت أنا القيادة مجددًا حتى يكمل راحته..

ثم توجهنا إلى المقهى المتفق عليه، ولكن طلب مني يوسف قبل ذلك أن أسلك الطريق الذى تطل عليه

الصيدلية نفسها.. التي حصل فيها ذلك الموقف برفقة الصيدلي الطيب..

ونبهني لأن أستخدم المسار البعيد وأن أسرع قليلًا تجنبًا لأي موقف غير متوقع..

كان يريد أن يأخذ فكرة عما يدور في تلك المنطقة حتى يقرر كيف يمكنه التصرف مع أولئك الرجال..

ولكن.. كانت الصدمة في انتظارنا فور مرورنا من ذلك الشارع!

صوت سيارة الإسعاف يخترق الآذان بعد أن مرت بمحاذاتنا بسرعة قصوى..

وسيارتان من الإطفاء تقفان أمام الصيدلية والكثير من البشر كانوا متجمعين من حولها!

لا أصدق ما شاهدته عيناي من بشاعة المنظر، الصيدلية قد تحولت

إلى ما يشبه كتلًا من الفحم الأسود والدخان يتصاعد بعد أن تم إطفاء النيران التي -حتمًا- قد التهمت المكان..

لقد أُحرقت الصيدلية بالكامل!!

ضرب يوسف بيده السليمة مقدمة السيارة، وهو يقول غاضبًا:

- هذه أفعالهم ولا غيرهم، لقد دفع الصيدلي ثمن كذبه عليهم.

اللعنة عليهم..

لا أصدق أنني قد كنت سببًا في هذه الكارثة!

في مقتل شخص بريء أراد أن ينقذ امرأة ضعيفة من بطش مجرمين بلا حدود أخلاقية..

طلب مني يوسف زيادة السرعة والابتعاد فورًا عن محيطهم..

كنت في وضع نفسي سيئ للغاية.. أقود السيارة وأشعر بالضعف..

بعض الدوار قد بدأ يلامس تركيزي.. لم أكن على ما يرام، وبعد أن ابتعدنا بمسافة لا بأس بها..

أوقفت السيارة جانبًا، ونزلت مسرعة مبتعدة عنهما حتى أستفرغ..

كنت أشعر بالغثيان بشكل لم أعهده من قبل..

استفرغت حتى شعرت أن معدتي كادت أن تخرج من فمي، وبعد أن فرغت.. جثوت على ركبتيّ..

وأصبحت التقط أنفاسي ثم بدأت بالبكاء بسبب تتابع المواقف المرعبة التي لم أعهدها في حياتي بهذا التتابع المجهد للنفس من

قبل..

أعلم أن البكاء لا يحل المشكلة.. لكنه يقدم لك ميزة سحرية لن تجدها عند غيره..

يكفي أنه يساعدك على تنسيم بعض الاحتباس الحراري الذي تشكل بداخلك بسبب تلك الهموم المتراكمة.. ما كنت أعيشه يفوق قدراتي الطبيعية في التحمل والتقبل..

كيف لهؤلاء أن يصنفوا معنا ضمن فصيلة البشر؟

لا أصدق أن بداخلهم تنبض قلوب كقلوبنا.. منظر الدماء أمامهم لا يغير ملامحهم..

وأصوات التوسلات المرعبة لا تحرك فيهم ساكنًا.. أقل ما يمكن وصفهم به..

أنهم وحوش من حجر.. اللعنة عليهم كل يوم، وإلى آخر يوم..

التفت نحو موقع السيارة، فوجدت ابني بتال ينظر إليّ من الزجاج الخلفي..

وذلك أكثر ما يؤلم قلبي ويسكب عليه القهر كله.. أن يشاهدني بتال وأنا في لحظة ضعف؛ لذلك كنت أسعى دائمًا لعدم حدوث ذلك، لكنني كنت أفشل بعض المرات للأسف..

عدت إليهما.. وركبت السيارة دون أن أنظر إلى وجه أحدهما وواصلنا الابتعاد..

كنت أحدث نفسي والحزن يحتل ما بداخلي كله طوال الطريق..

ليتني ما زلتُ عاملة قهوة في ذلك المقهى الماليزي، أقبض راتبًا مضمونًا وأنا مطمئنة البال..

أستمتع مع ابني بتال في شقة صغيرة معروفة الحدود، بدلًا من أركض معه وأنا مرعوبة في أراضي شاسعة مجهولة الأطراف!

ونحن نواصل المسير..

طلب يوسف مني التوقف.. كنا قد وصلنا إلى منطقة مطاعم شعبية محلية على قارعة الطريق الطويل..

أشار لي بالتوقف بين السيارات المتناثرة وبعض الدراجات النارية..

وبالتحديد عند سيارة معينة كانت قد لفتت نظره.. نزل وتوجه نحوها.. وفي أقل من ربع ساعة..

تمكن من فتحها وتشغيلها.. ثم أشار إلينا بنقل الأغراض والركوب معه..

وقد كان ذلك بلا نقاش، أصبحت أفهمه، كان يريد أن يغير السيارة التي يبحث عنها أولئك المجرمون..

بقاؤها في حوزتنا يعني مرافقة الخطر معنا، وبالتالي ارتفاع نسبة إمكانية وصولهم إلينا بسهولة..

قرر هو تولي القيادة.. أخبرني أنه يشعر بالتحسن قليلًا ويمكنه فعل ذلك، وقد كان..

ابتعدنا نحو وجهة جديدة، لا نعلم ماذا ينتظرنا بها!

توجهنا إلى الموقع المقصود، وبدأت في استعادة هدوئي بعض الشيء..

وبينما كنت منهمكة برفقة يوسف في بعض الأحاديث تارة، وفي اللعب مع ابني بتال تارة أخرى والذي كان يجلس وحيداً بالمقعد الخلفي..

سألت يوسف وأنا أحاول قضم أحد أظافر أصابع يدي اليسرى:

- لم تحدثني عن عائلتكَ من قبل، هل تتواصل معهم؟ هل تفتقد إليهم؟

شعرت من تبدّل ملامح يوسف كما لو أنني قد لمست ألمًا بداخله.. وجدته يتنحنح قبل أن يجيبني وكأنه يحاول كسب بعض الوقت، ثم قال:

- كانت لديّ عائلة.. توفيت زوجتي ولم يعد لديّ سوى أخي، وبعد أن فقدته، أصبحت وحيدًا.. لهذا أنا لا أخاف الموت.

لم أتوقع هذه الإجابة، لقد أحزنني وضعه، ولكن لم يكن بيدي شيئًا سوى تلطيف الموقف؛

لذلك وبعد أن قدمت له بعض المواساة.. قلت له:

- هل تصدق يوسف، أشعر أننا عائلة فعلًا.

التفت إليّ وكأن حديثي قد جذبه.. ثم تساءل:

- هل تقصدين عائلة بسبب صفتنا الوهمية في الأوراق المزورة؟

- لا... لا، عائلة حقيقية، كل من سيشاهدنا سيشعر تجاهنا بالشعور

نفسه.

صمت قليلًا ثم واصل القيادة قبل أن يعود إليّ مستفسرًا:

- وما الذي جعلكِ تشعرين هذا الشعور؟

- نوعية الملابس الرديئة التي نتشارك فيها ونحن نسير سويًا.

قلتها وأنا أضحك ضحكة عفوية وعشوائية خرجت من داخلي دون تخطيط..

وجدته قد اندهش من إجابتي غير المتوقعة.. لكنه لم يتمالك نفسه وشاركني الضحك بشكل هيستيري..

وبينما كنا نواصل التعليق على ألوان وتصاميم الملابس التي اختارها لنا بنفسه..

وجدنا أنفسنا في موقف لم يكن في الحسبان!

توقفت الضحكات كما لو أنها لم تكن، وتبدلت الأجواء في لمح البصر..

لقد حل الصمت فجأة بالسيارة.. نقطة تفتيش لرجال الأمن كانت في انتظارنا!

للأسف كانت المسافة قصيرة جدًا بيننا وبينهم.. ولا يمكننا تغيير المسار أو التراجع..

وإلا سنلفت النظر ونثير الريبة وحينها سنقع في مشكلة كبرى لا تحمد عقباها..

طلب يوسف مني الهدوء والتعامل كعائلة كما أخبرنا من قبل..

يبدو أنه الاختبار الأول بعيدًا عن السخرية والضحكات.. طلبث من بتال أن يقفز للمقعد الأمامي للجلوس إلى جانبي، لكن يوسف كاد أن يرتفع صوته من الغضب..

طلب مني منزعجًا أن أترك ابني وأتعامل بعفوية دون أن نلتف الانتباه، وقد كان ذلك..

الحقيقة التي لا يمكنني تجاهلها في تلك اللحظات، أن التوتر قد كان يزداد تدريجيًا كلما نقصت المسافة واقتربنا نحو نقطة التفتيش..

طلب منا أحد رجال الأمن التوقف، وأمر بإنزال زجاج النافذة، ثم بدأ يتأمل وجوهنا..

شعر يوسف بتوتري فقرر أن يبادر الحديث حتى يبدد تركيز الشرطي.. حيث تحدث بالإنجليزية قائلًا:

- يومكم سعيد.

نظر إليه ثم تحدث بلغته الأم، علمنا أنه لا يجيد الإنجليزية، لم نفهمه..

حاول يوسف تبسيط بعض الجمل لعله يدرك ما نقول.. حين أخبره قائلاً:

- نحن عائلة، أتينا للسياحة بعدما كنا في منتجعات تايلاند.

لكنه عاد للحديث بلغته المحلية، قبل أن ينضم إليه زميله الذي

لاحظ ارتفاع صوته..

حتى أخرج يوسف جوازات السفر والأوراق التي تشير إلى أننا عائلته..

وكذلك التي تثبت دخولنا إلى البلاد بطريقة نظامية.. التقطها أحدهما وبدأ في مطابقة الصور مع ملامحنا..

حينها دار جدل فيما بينهما، ولم نكن سوى مراقبين للموقف والتوتر لا يفارقنا..

كانت لحظات عصيبة جدًا، ولكن من حسن الحظ أننا قد تسببنا في تعطيل العديد من السيارات خلفنا، وبعض الدراجات النارية..

ولكي يبعدا عنهما الحرج.. أعادا الأوراق إلى يوسف وطلبا منه سرعة المغادرة..

لقد نجونا بأعجوبة، الإثباتات المزورة والملابس التنكرية..

كانت طوق النجاة الذي جعلنا نعبر بسلام.. كدت أن أنهار..

حينها حضنت بتال بقوة بعد أن سحبته إليّ وأنا غير مصدقة لتفاصيل ذلك الموقف المرعب..

اعتلت ضحكات يوسف، غير مصدق لما مررنا به.. ثم قال ساخرًا:

- من الآن وصاعدًا، عليكِ أن تحترمي ملابسنا الرديئة.

أردت أن أضحك.. لكن ملامحي كانت -ما زالت- متيبسة؛ فاكتفيت بالصمت محاولة استعادة أنفاسي التي كانت قد أوشكت على الاختفاء.. لم أعد أستهين بأبسط التفاصيل..

فالتردد هنا لا مكان له من الإعراب، هناك قرارات مهمّة لا تحتمل التأخير، عليك أن تقرر في أقصر وقت حتى تتجاوز المنعطف قبل أن تلتقطك الهاوية، وقد كان ذلك..

وهو حالنا مع قرار التنكر والتزوير..

واصلنا التقدم..

أراد يوسف أن يبعثر حجم التوتر والضغط الرهيب الذي كان -لا يزال- مسيطرًا على الجو داخل السيارة.. بعد ذلك الموقف المنهك للأعصاب؛ فأخرج هاتفه النقال..

وبدأ يبحث عن شيء ما، حتى توصل إلى ما يريد، كان يبحث عن أغنية..

وضع هاتفه على فخذه الأيمن بعد أن رفع صوت المكبر إلى أقصاه..

وبدأ فنان العرب يصدح بصوته الشجي الذي يجذب كل طبلة أذن تهوى الغناء..

كان اسم الأغنية: (غريب الدار)(8).

كانت كما لو أنها تعبر بكلماتها عن واقعه في هذه الأرض الغريبة عنه..

كان غريبًا فعلًا يتجول في الأرجاء بلا كلل، ولا أصدق من صوت محمد عبده في تمثيل مشاعر ذلك التائه السعودي بلهجته الشجية والفاخرة.. كان كما لو أنه يهذب الحزن بعذوبة صوته..

ويسكن الألم بعطف تنقلاته على السلم الموسيقي.. كما لو أنه فراشة حرة تتلاءم مع عناد الرياح..

هي من تتحكم بها وليس العكس، وهكذا كان صوته، يتلاءم مع انتظام النوتة..

كما لو أنها هي من تنتظم مع نبرته؛ حتى لا تتحول إلى نشاز مكسور لا يليق بأن ترقى إلى أن تكون نغمة صول..

اندمجنا مع كلمات الأغنية ولحنها الآسر، لكن بتال كان له رأي آخر..

لقد تفاعل بشكل غير متوقع.. كان يتمايل مع اللحن بشكل مضحك..

لكنه كان يعتبر ذلك رقصاً ولا يمكننا قول غير ذلك..

لم أعهده بهذا التفاعل مع محيطه.. تفاعل معه يوسف وبدأ بالتصفيق ومشاركته الرقص الغريب..

وما كان مني إلا وأن أتفاعل مع رقصة ابني المضحكة وأشارك يوسف بالتصفيق على وقع اللحن..

ومر الوقت مبهجاً بعض الشيء، وسط ظروف لا تعكس أي ملامح للبهجة..

كان ذلك حتى وصلنا بعد الميعاد المتفق عليه بدقائق قليلة..

وقبل أن نترجل من السيارة، أعاد يوسف هاتفه إلى جيبه قبل أن يتوجه بجسمه نحوي حتى ينظر إليّ بوضوح، ثم حذرني قائلًا:

- مهما بلغ حجم الثقة فيما بينكما، تذكري أن الأمر لا يخصكِ

وحدكِ، أنا شريك معكِ في البحث عن النجاة، أتمنى ألا يغيب ذلك عن بالكِ.

- وما مناسبة هذا الحديث يا يوسف؟

- أوعديني... لا تخبريه عن سر الهويات المزورة.

كان إصراره لافتًا فحجم الصدمات التي مرّ بها منذ بدء مقتل أخيه.. ومن ثم ما مر به كله معنا..

هو أمر يفوق طاقة أي شخص، ويجعل منك شخصًا لا يثق في أيّ أحد؛ لذلك وعدته بأن يبقى هذا الأمر سرًا حتى عن كريم..

خصوصًا أن الأمر كما كان يكرر مرارًا لا يخصني وحدي، بل يخصه أيضًا..

المهم، نزل ثلاثتنا ودخلنا إلى المقهى..

وجدت كريم يجلس منتظرًا، توجهت إليه ملهوفة والدموع تتشكل قبل نزولها، عانقت عيناه عينيّ..

لم يتعرف عليّ في البداية بسبب الحجاب، لكنه أدرك ذلك بمشاهدته لابني بتال يسير خلفي برفقة يوسف..

نهض من كرسيه فور تيقنه من ذلك، حضنته دون أن أشعر وانهمرت في البكاء..

كان يحاول تهدئتي وسط انتباه الزبائن في المقهى، وعلى وقع نظرات يوسف الذي كان ممتعضًا لكنه يتصنع الابتسامة، بعدها قام كريم بحضن بتال حضن المشتاق، وكان يسأله عن صحته وعن

أموره ويصفه بالرجل القوي، ثم سألني قائلًا:

- لماذا تأخرتم؟ حاولتُ الاتصال بكِ لكن هاتفكِ مغلق.

كنت منشغلة بمسح دموعي، بعدها قدمت له يوسف قائلة:

- أقدم لك هذا الشهم يوسف ابن السعودية، مَن اختار حمايتي أنا وابني متحديًا الظروف والأخطار كلها، لا أعلم ماذا كنتُ سأفعل بدونه.

تصافحا وشكره كريم على وقفاته الرجولية، ثم رحب بنا وطلب منا الجلوس، قبل أن يحضر لنا القهوة وبعض العصير لبتال، تحدثنا كثيرًا عن أمور مختلفة قبل أن يسألني كريم مستغربًا:

- مبروك الحجاب يا ليلى، لم أتوقع ذلك.

نظرت إلى يوسف فوجدته يرمقني بنظراته، فتلعثمت قبل أن أجيبه متظاهرة بالرضا والقناعة بالاختيار قائلة:

- في مثل هذه الرحلات تحضر قرارات ليست متوقعة، وهذا من ضمنها.

أراد أن يرد بالحديث لكن يوسف تدخل وغيّر الموضوع وسأل كريم:

- هل يمكنكَ مساعدة ليلى وابنها في الخروج من ميانمار؟

صمت كريم لبرهة ثم أشار برأسه بإمكانية ذلك وهو يقول:

- نعم، من خلال البر، عبر الحدود نحو تايلاند.

- كيف؟ غالبًا الحراسات هناك تكون مشددة جدًا.

- لا عليكَ، لديّ صديقي يعرف الثغرات هناك، ولديه علاقاته الخاصة التي تمكنه من تمرير البشر والحمولات، ولكن...

نظرنا إليه جميعًا ننتظر منه إكمال حديثه، حتى واصل قائلًا:

- نحتاج إلى المال، الشخصان قد يكلفان ما لا يقل عن ثمانية آلاف دولار.. أنا استطعت توفير جزء من المبلغ، بحوزتي ألفي دولار، يتبقى لنا توفير المبلغ المتبقي.

يااااه، مبلغ كبير جدًا لا أملكه في هذه الغربة اللعينة..

ولكن، تدخل يوسف وتعهد بإكمال ما تبقى من ماله الخاص، وهنا تنفسنا جميعًا الصعداء..

أعلم أن هذا أمر مكلّف عليه، لكننا لم نكن نملك خيارًا آخر..

فما كان بحوزتي لا يتعدى الـخمسمئة دولار، سألت كريم عن موعد التوجه إلى الحدود..

وفاجأنا بإجابة لم نكن مستعدين لها قَط؛ حيث أجابني:

- فجر اليوم... إن أردتما.

تداخل يوسف متسائلًا:

- وما الذي تحتاجه الآن؟

- بقية المبلغ.

- لا أملكه هنا، سأكلف صديقًا لي في السعودية حتى يرسله إليكَ.

لم يمانع كريم وأخرج من جيبه بطاقة كتب عليها رقم حساب في أحد البنوك الدولية..

وطلب من يوسف تحويل المبلغ في أسرع وقت ومن ثم إرسال رقم الحوالة فور القيام بذلك..

خصوصًا أن هذا النوع من الحوالات يأخذ وقتًا حتى يصل المبلغ..

وفي الوقت نفسه ومن خلال علاقاته سيعجل بموضوع مغادرتي برفقة ابني.. وسيشرح لهم مشكلة

الوقت فيما يخص الأمور المادية، وعليه سيقوم المهرب ببدء المهمة قبل وصول المال..

اتفقنا بسرعة غير متوقعة..

تمنيت لو أن كريم قد وجد منذ البدايات، لكنا قد غادرنا قبل المرور بتلك المنعطفات الخطرة والمؤلمة..

وجوده يضفي الأمان كعادته، في الرخاء كان كذلك، واليوم في الشدة..

ولكن للأسف لا تفيد الأمنيات بعد وقوع المصائب..

استأذن كريم لإجراء العديد من الاتصالات والتي تخص ترتيب الرحلة..

وبقيت أنا وبتال ويوسف، نهض ابني من على كرسيه وتوجه نحو يوسف، وقام باحتضانه..

استغرب يوسف ذلك لكنه تفاعل معه بمبادلته للحضن..

الحقيقة حتى أنا استغربت من تصرف بتال العفوي.. كل المخلوقات تؤمن بمفعول الحضن..

حيث يكمن السر في الاحتياج إلى الحضن الصادق.. هو أنه يأخذ منك ما لا تريده..

ويعطيك ما تريده كله..

كان يوسف يتحدث إلى ابني وهو يبتسم وعيناه توشكان على تشكيل الدموع:

- أنت شجاع يا بتال، كنت رجلًا حقيقيًا بجانب والدتكِ المناضلة.

ابتعد بتال قليلًا حتى أصبح وجهه موازيًا لوجه يوسف، ثم رفع إصبع إبهامه الأيمن..

ليخبره بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ضحكنا جميعًا على تصرفه العفوي..

ثم نظرت إلى يوسف فسألته بحزن مخفي وكأنني اتوسل إليه:

- ألا ترغب بمرافقتنا حتى النهاية؟ البقاء هنا خطرٌ عليك.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يخرجه وهو ينظر إلى الأعلى:

- تعلمين أن مهمتي لم تنتهِ بعد، لديّ ثأر لا يبرد مع لقمان.

- أخشى عليك منهم، هم متمكنون من جميع المفاصل في البلاد.

- روحي ليست أغلى من روح أخي.

- ولكن يا يوسف...

قاطعني وهو يقول عن قناعة واضحة:

- أنا مطلوب من الدائنين في بلادي، وعودتي -حاليًا- ستفقدني حريتي، وخروجي من هذه البلاد ليس سهلًا، وإن حصل فهذا يعني صعوبة العودة إليها مجددًا بسبب تعميم اسمي في جميع المنافذ؛ لذلك لن أخرج من هنا إلا برأس لقمان.

كان مُصرًا وعيناه تختصران كل شيء، يحمل في صدره الحقد كله على ذلك المجرم الحقير..

لا يمكنني لومه أبدًا، فعدد قائمة الضحايا الذين في قائمة لقمان عدد مروّع، لا يمكنني تصديق ولو لوهلة، أنني وابني الوحيد قد كنا من ضمنهم..

مرعب هو مجرد استذكار التفاصيل التي قد عشتها معه، لا أصدق أنني قد شاركته الطعام نفسه..

والأكثر تقززًا، شاركته الفراش نفسه، ولا أصدق الآن، كيف أنني على وشك النجاة من شباكه..

طلب مني يوسف تبديل شريحة هاتفي في أقرب وقت من أجل سلامتي..

وقبل أن أقوم بذلك قاطعنا كريم الذي عاد إلى طاولتنا والبهجة على وجهه.. واقترب فرحًا وهو يقول:

- هناك رحلة غير مشروعة ستتحرك قرابة الساعة الثالثة فجرًا، علينا التحرك الآن نحو الحدود التايلاندية، ستستغرق قرابة السبع

ساعات أو أكثر حتى نصل بالقرب منها ومن ثم ستحتاجان إلى المزيد من الوقت حتى تعبرا إلى تايلاند، وسأسبقكما إلى هناك بالطائرة.

رحلة طويلة جدًا، ولن تكون سهلة على ما يبدو، وصف الرحلة وحده يخلق الخوف في داخلي..

رحلة غير مشروعة(9)

تبدّلت فرحتي ورغبتي في المغادرة إلى خوف غير مفهوم..

لأول مرة سأخوض رحلة مرعبة كهذه وحدي، مع ابني فقط، لا مرافق معي كيوسف ولا حتى كريم، سألته والارتباك واضحًا على نبرة صوتي المتأرجح:

- هل الحدود آمنة؟ وماذا سنفعل فور وصولنا إلى داخل تايلاند؟

أجابني كريم وهو يحاول احتواء ارتباكي قائلًا:

- السائق خبير ومتمكن ويعلم الطريق المناسب للعبور، بالإضافة إلى علاقاته هناك، تمكنه من المرور برفقة بعض المهاجرين غير الشرعيين.. لا تقلقي.

لاحظ خوفي الذي كان يتصاعد تلقائيًا، فعاد مواصلًا حديثه ليكمل:

- سأنتظرك في الجهة المقابلة في منطقة سينزلونكما فيها، الأمر جميعه مرتب، وسيتم الاهتمام بكما اهتمام خاص.

ثم نظر إلى يوسف الذي كان يستمع بإنصات، وقال له:

- أرجوكَ يوسف، اكتمال حوالة المبلغ ضروري وحتمية، هؤلاء جماعات إجرامية

لا لغة مفهومة أو مقبولة لديهم سوى لغة المال.

- لا تقلق، سيصلك كما اتفقنا وفي أقرب وقت، أكمل مهمتك فحسب.

- شكرًا يا يوسف على موقفك البطولي مع ليلى وبتال، أنت شهم فعلًا.

تبادلا الابتسامة وانتهى الحوار الأخير إلى هنا، طلب منا كريم الانطلاق فورًا لبُعد المسافة نحو نقطة الانطلاق عند الحدود، ودعنا يوسف الوداع الأخير، كان لا يتقبل الأحضان..

لكنني لم أقوَ على فراقه من دون أن أحضنه حضنًا عفويًا معبرًا عن امتناني كله لتضحياته معي،

لمست منه تردده لكنه لم يتمكن من الإفلات، لقد حضنته وودعته متمنية له السلامة كلها..

كان مُحرجًا للغاية، لكن ذلك التعبير الوحيد الذي كنت أجيده حينها..

فمراحل الخراب واليأس والخيبات المتراكمة كلها والتى تحاول حرق فرصنا في العودة إلى أنفسنا الهشة يلغيها بسرعة غير مفهومة ملمس حضن صادق كما لو أنه قد أعادنا مجددًا إلى ذروة الحياة..

وقد كان ذلك مع هذا الشهم..

حاول يوسف تجاوز الموقف باختلاقه لبعض الأحاديث..

حيث أصر على مرافقنا حتى باب سيارة كريم.. وبينما كنت على وشك أن أفتح الباب المؤدي إلى الكرسي الأمامي، تدخل يوسف بشكل سريع جعلني أكاد أفشل من السيطرة على ابتسامتي بسبب تصرفه؛ حيث قام بفتح الباب الخلفي كي أركب من خلاله أنا وابني، ثم أغلقه وهو يحاول ألا يوجه نظراته نحوي، لا أعلم إن كان تصرفه من باب الغيرة من كريم أم شيئًا آخر..

لاحظت استغراب كريم من ذلك، لكنه لم يعارض..

فتوادعنا بحزن رغمًا عن الابتسامات من خلف الزجاج للمرة الأخيرة، لا أصدق أنه اللقاء الأخير مع يوسف، وغادرنا انا وابني وكريم نحو المرحلة الأصعب، حيث الوجهة الأخطر!

الحقائق لا تَكشف عن نفسها..

هناك مواقف غير متوقعة هي ما تقوم بالمهمة!

بعد أن قطعنا مسافة مملة..

توقفنا عند إحدى البقاليات الصغيرة، نزل كريم كي يزودنا ببعض الأطعمة والمشروبات التي ستساعدنا على تحمل عناء بقية الطريق، كانت فكرة جيدة..

طلبت منه أن يحضر بعض الحلويات لبتال، للأسف لم يتذوقها منذ فترة طويلة بسبب ما مررنا به من أحداث لا تترك أية مساحة للتمتع، وأكثر ما يسعد أمثاله هو كيس صغير من الحلوى الملونة..

بعد دقائق عاد كريم محملًا بمشتريات متنوعة..

ثم قدم لنا العصير المعلب الذي كان باردًا بشكل يغري كل من يلمسه.. عصير برتقال مثلج..

شربناه مباشرة كما لو أننا كنا نشرب ترياقًا.. لا أعرف إن كان لذيذًا فعلًا..

أم أن غيابه عن ملامسة ألسنتنا هو ما يجعله كذلك.. شكرتُ كريم على الاهتمام كله والعطف الذي يقدمه لي ولابني، ووجدته يرفض مثل هذه العبارات.. معللًا بأنه لا يقوم سوى بواجبه بحكم العِشرة التي كانت ولا تزال تجمعنا..

واصلنا التقدم على الطريق نفسه لمدة طويلة ترهق كل مَن يخوضها..

حتى انحرفت السيارة يمينًا، نحو طريق غير معبد بشكل جيد ويفتقد للإنارة..

كان المسار مظلمًا بعض الشيء، حدثت كريم وكشفت له عن خوفي من فشل المهمة..

لكنه رد علي بثبات كما اعتدت منه ذلك:

- التجربة وحدها ما تجيبنا على جميع التساؤلات المبهمة.

على الرغم من حجم الخوف الذي لم يفارقني منذ بدء معاناتي من وراء تلك الزيجة السيئة في جميع تفاصيلها، إلا أنني كنت أشعر ببعض الطمأنينة برفقة العزيز كريم.. كان يقود السيارة مخاطرًا ومحاولًا أن يقودنا من خلالها إلى النجاة..

قال لي وهو يحمل بعض التردد كما بدا لي من طريقته في الحديث:

- آسف على كل شيء يا ليلى.

- آسف!... على ماذا يا كريم؟

- أنا من شجعتكِ للموافقة على هذا الزواج من ذلك الحقير.

كنت موقنة اليقين كله بأن لا ذنب له؛ لذلك أخبرته عن فهمي لمقصده الحقيقي من وراء ذلك..

جحيم الغربة ومسؤولية تربيتي لابني بتال واحتياجاته في هذه المرحلة العمرية كلها أمور تتطلب كتفًا أستند عليها، وقد كانت تلك فرصة ذهبية لأية فتاة في مثل عمري تعاني ولا تملك أسرة..

لكن حظي التعيس لم يكن على استعداد بأن يبتسم لي في تلك اللحظة..

وعليه لا ذنب له ولا حتى لأختي التي نصحتني بالموافقة حينها وللأسباب ذاتها..

طال الطريق حتى بدأ النوم يتحرش بعينيّ المرهقتين..

سبقني بتال في السبات؛ لذلك وجدت نفسي أتمدد بجانبه كعادتي، وأخبرت كريم بذلك..

واختار هو مواصلة القيادة بسبب ضيق الوقت كما كان يقول..

أذكر تلك النومة جيدًا، حلمت فيها حُلمًا لا يُنسى؛ لقد كنت برفقة أمي وأبي وأختي الكبيرة..

في أجمل حديقة كنا نذهب إليها دائمًا في عاصمة بلادي العربية..

عندما كنت أدرس في المرحلة الابتدائية، كان المكان المحبب لدينا جميعًا..

لا يمكنني أن أصف لكم حجم الفراغ الذي تركاه والداي بعد وفاتهما..

فإبداعات التعبير كلها لا يمكنها أن تترجم لكم تفاصيل تلك المشاعر المؤلمة..

تكمن بشاعة الفقد في أن له أنواع متفاوتة في الضرر..

ولكن أشدها ضررًا هو أن نفقد ذواتنا بسبب فقدان مَن يهمنا وجودهم معنا!

كان حُلمًا مثاليًا في كل شيء، الجميع يبتسم، حتى الجو كان عليلًا جدًا..

افترشنا مكانًا تحت شجرة مثمرة كبيرة.. قبل أن يذهب والدي إلى إحدى عربات الطعام..

ويحضر لنا صحنا بلاستيكيًا عليه الكثير من البطاطس المقلية المغطاة بالكثير من الكاتشب

الذي كنت أدمنه أنا وأختي.. كانت من أجمل لحظات الترقب..

أكاد لا أفهم تلك المفارقة العجيبة التي تحدث معنا كبشر..

فعندما تجد نفسك -لا تزال- صغيرًا في السن، تتمنى أن تصبح كبيرًا في أسرع وقت..

وعندما تكبر في العمر، تتمنى لو أن تعود صغيرًا كما كنت من قبل!

لكن الأمنيات كما تعلمون لا تتحقق جميعًا، والحياة تتقدم رغمًا عن الجميع..

واصل والدي اقترابه نحونا في الحلم اللطيف..

وبينما كنا نراقب بلهفة اقترابه من موقع جلوسنا، تغيرت ملامحه فجأة!

وأشار بيده إلى شيء ما كما لو أنه يحذرنا من قدومه من خلفنا، قبل أن تصرخ أمي بأعلى ما تملكه من قوة صوتية قائلة:

- اهربي يا ليلى.

هنا استيقظت مفجوعة على صوت معركة!!

كنت أتنفس بصعوبة بعد انفصالي عن الواقع ومن ثم عودتي إليه

بسرعة مربكة..

وجدت رجلين ملثمين قد اعترضا سيارتنا ثم تهجما على كريم..

أحدهم فتح باب السيارة وأنزله ثم قاما بضربه ضربًا مبرحًا بلا توقف، أكاد لا أصدق ما أشاهده..

حاولت التدخل لمساعدته لكن ركبتي كانتا ترتجفان بشكل لا يمكن وصفه من حجم الرعب..

حاول كريم المقاومة لكنهما كانا أقوى منه..

حينها وجهت نظري إلى مكان بتال.. لم أجده!

شعرت بحرارة قد اجتاحت وجهي قبل أن تندلع بداخلي بسرعة الضوء..

تحسست الكرسي غير مصدقة لاختفائه، صرخت بأعلى صوتي منادية باسمه..

قبل أن يقطع صراخي صوت صراخ كريم، ركله أحدهم على بطنه قبل أن يسدد الآخر له ضربة خطيرة على رأسه بمؤخرة السلاح ويسقطه مغشيًا عليه!

هنا التفت الرجلان نحوي..

حاولت النزول بسرعة حتى أهرب لكني شعرت كما لو أنني أثقل من المعتاد!!

دوار غريب وكسل متمكن من جميع أنحاء جسمي، لم يسعفني في تنفيذ ما أريده..

اقتربا مني وسط توسلاتي إليهم للابتعاد، وتكراري لاسم بتال، حاولت أن أركلهم بكلتا قدميّ..

ولكن ذلك لم يغير من الواقع أي شيء، وشعرت أنني لم أكن بقوتي الطبيعية نفسها؛

فسحبني أحدهم من يدي بقوة وأدخلني عنوة إلى الصندوق الحديدي لسيارتهم ثم أغلقوه بإحكام لا يترك أي مجالًا للهرب.. وغادرا بي تاركين كريم في وضعه الخطير، ومن دون ابني بتال..

كنت أصرخ بأعلى صوتي:

- بتال... كريم... أرجوكم عودا إليهما، أرجوكما.

وابتعدنا دون أن يأبه أحدهما إلى صرخاتي المبحوحة، كنت أشعر كما لو أنني أعيش كابوسًا..

هل يعقل أن لقمان قد تمكن من تحديد موقعي مجددًا؟

للأسف لقد نسيت تغيير شريحة هاتفي المستخدمة كما طلب مني يوسف قبل مغادرتي..

لست مستعدة أبدًا للعودة منذ نقطة البداية من جديد.. طوال الطريق كنت في حالة هيستيرية بسبب اختفاء ابني بتال.. فما شغلني كله حينها وسيطر عليّ هو محاولة الخروج من هذا الصندوق المغلق..

والعودة من أجل البحث عنه..

كنت أحاول أن أكسر الباب بقدميّ، أضربه بأقصى ما أوتيت من

قوة، وبشكل مستمر..

وكان السائق يصرخ بلغة جديدة ليست معلومة عندي، بدا لي أنه من جنسية ليست آسيوية!

شعرت أنني قد سمعت هذه اللغة من قبل.. وفهمت من نبرته أنني قد أزعجته..

وعليه كان يطلب مني التوقف عن مواصلة الإزعاج..

كنت أتجاهل تكرار مخاطبته لي، وأواصل ركل الباب بقوة.. أشعر بالألم ولا أهتم لذلك..

واصلت حتى شعرت أن قدمي قد تخدرتا من تكرار الضرب على الباب الحديدي الصلب..

حتى فقدت قواي وبقيت جالسة أفرغ القهر كله الذي بداخلي في البكاء..

كنت أبكي بقوة حتى أحسست أنني قد فقدت السيطرة في التوقف..

لا أصدق أنني أجلس في هذا الصندوق وحيدة، دون ابني..

حدث ذلك بعد أن فقدت تلك الفرصة التي انتظرتها طويلًا للنجاة..

تولد بداخلي شعور قاتل لم أشعر به من قبل، شعرت أنني أم فاشلة، لا يمكنها أن تحمي صغيرها..

كنت في قاع عجزي؛ حيث لا أملك سوى مواصلة البكاء، وواصلت سيارة الخاطفين سيرها نحو المجهول الذي طالما كان يرعبني!

وبعد انتظار مجهِد للنفس..

وصلنا إلى بيت صغير ومتهالك في منطقة تغلبها المزارع..

أدخلوني رغمًا عني إلى الداخل، حاولت أن أدفعهما وأهرب؛ لكنني فشلت بكل سهولة..

وأنا -ما زلت-أشعر ببعض الخمول.. لم أفهم لماذا، وما الذي حل بي فجأة..

وبعد ذلك غادر أحدهم، وبقي الآخر واقفًا أمامي بمسافة متوسطة، وهو لا يزال ملثمًا مثل شريكه..

ظل ينظر إليّ بنظرات ليست مريحة..

لاحظ خمولي وحركتي البطيئة؛ لذلك قدم لي الماء حتى أستعيد نشاطي..

قبل أن يخلع اللثام من على وجهه، أجزاء من الثانية، تعرفت عليه فورًا، كيف عثر عليّ بهذه الطريقة؟

أنه الرجل الكولومبي الذي كان يقود عملية نقل الفتيات إلى ذلك القصر!

الشخص الذى خطفنى من شقة صديق لقمان بالعاصمة بانكوك..

من أجل بيعي لصالح ملهى ليلي هناك، لم أستوعب أنه كان يقف الآن أمامي..

توسلت إليه كي يتركني أغادر حتى أبحث عن ابني المسكين..

لكنه لم يتعاطف معي قَط، كان يتحدث بكلمات مختلطة، ما بين الكولومبية وبين الإنجليزية الركيكة؛

حيث خاطبني قائلًا:

- ليس قبل أن تسلميني رقبة زوجكِ لقمان.

- لم يعد يربطني معه أي شيء، لحظة... لقمان؟ هل تعرفه شخصيًا؟

- سوء المعرفة، التاجر الوحيد الذي كان يبيع زوجاته ويقبض الثمن.

- زوجاته! ماذا تقصد؟

أرسل صدماته إليّ والتي كانت تشبه الرصاصات، حين قال لي:

- أصبح يعمل لحسابه الخاص بعد أن اختلفنا على السعر حولكِ.. والسبب أن برفقتكِ طفل، الحقير كان يريد مضاعفة السعر على غير عادته.

يبدو أنني قد كنت موعودة بمفاجآت سيئة غير متوقعة..

كان يكمل كشف الأسرار وكنت أستقبلها بصدمات تشبه الطعنات في القلب..

علمت منه أن لقمان كان يستدرج الفتيات الوحيدات ميلاتي من خلال عروض الزواج المغرية..

والهدف هو نقلهم إلى تايلاند ومن ثم بيعهن وذلك بعد أن يستمتع بهن!

يبدو أن شباكه قد اصطادت قبلي الكثير من الفتيات!!

ومن حسن حظي أنني أملك طفلًا يرافقني، هو مَن تسبب في إشعال نار الخلاف فيما بينهم من دون أن نعلم ذلك، كنت أعتقد أن تقبله لابني بتال وقبول رعايته هو رغبة وشهامة منه..

لكن ذلك لم يكن سوى جشع وخسة وتخطيط إجرامي لا أقل ولا أكثر..

هذا الخلاف، جعل هذا الكولومبي وجماعته يقدمون على اختطافي وابني.. وعلى ما يبدو هذا التصرف من قبلهم، هو ما دفع لقمان إلى استعادتي بعد تحريري من احتجازهم لنا بالفندق..

ومن ثم نقلي إلى ميانمار حتى لا يسمح لهم بفرض رأيهم والانتصار عليه..

وها هم يعودون من خلال هذا المجرم لاختطافي مرة أخرى حتى يقتصوا من لقمان..

خصوصًا أن لقمان بعد مغادرته قد وشى بهم عند رجال الأمن في بانكوك كما أخبرني خوليو..

وقد تسبب بذلك في مقتل بعض من رجالهم بسبب بعض المداهمات الأمنية المباغتة..

وعلى رأسهم والده الذي كان من أشهر المهربين بين الحدود..

ومن بعدها فقد تشتت شملهم وضعفت قوة وحدتهم وأصبح وحيدًا يتعاون في مهماته الخاصة برفقة بعض أصدقائه السابقين،

ثم ختم حديثه بكشف حقيقة لحادثة كنت على وشك أن أنساها كليًا؛ حين قال متحسرًا:

- كنت على وشك أن أتخلص منه منذ البدايات، ولكن للأسف لقد نجا بأعجوبة غير متوقعة من مخطط الانفجار بالملهى الماليزي(10)

ذلك الانفجار الذي كدت أن أفقد فيه حياتي.. كان يستهدف لقمان!

لا أصدق أنني كنت مغفلة إلى هذه الدرجة والتي لا أدرك فيها ما يدور كله من حولي..

والآن فهمت الكثير من الأمور وتوصلت إلى كثير من الإجابات..

لم أرَ في حياتي بأكملها أحقر من لقمان، حقارته لا توصف، لديه قدرة عجيبة على التصنع والتمثيل..

وكذلك على التناقض والتلون.. ليتني أستطيع أن أسهم في تدميره، لكن كيف؟

كيف لي أن أخدم هذا الرجل الخطير؟ .. حتى أتحرر من قبضته وأعود للبحث عن ابني والاطمئنان على كريم الذي لم أكن أعلم ماذا حل به للأسف، ومن ثم أعود إلى الحدود كي أواصل رحلتي المعلقة..

فك القيود عني، وحذرني من التصرف بغباء..

ثم قدّم لي الطعام والماء، وأغلق الباب بإحكام قبل مغادرته..

لا أعلم لماذا يتعامل الخاطف مع المخطوف كما لو أنه بهيمة لا

تحتاج إلا إلى الغذاء..

كيف لي أن أشبع بطني وأنا فاقدة لابني الوحيد؟ استحالة أن يدرك أمثاله تلك المشاعر الإنسانية..

وبعد مرور قرابة الخمس ساعات..

عاد وبرفقته الرجل الملثم الآخر، وفور مشاهدتي لهما بدأت أتوسل إليهما بأن يتركاني أغادر بسلام..

لكن زميله الملثم لم يمهلني مواصلة الحديث حتى كشف عن لثامه..

ويؤسفني أن أخبركم أنه كان.. يوسف!

لم تصدّق عيناي ما كانت تشاهدانه، لست مستعدة أبدًا لتلقي صدمات أخرى أكثر فتكًا من التي قبلها؛

فسألته وأنا على وشك الانهيار بعد رؤيته:

- يوسف ماذا تفعل هنا؟ ما العلاقة التي تجمعكَ مع هذا المجرم؟

طلب مني الهدوء لكنني فقدت السيطرة وركضت نحوه كي أعتدي عليه..

فأمسك يديّ مانعًا لها الاقتراب منه، وصرخ على وجهي صرخة لم أعهدها منه من قبل..

ثم طلب مني الجلوس وهو في قمة غضبه..

صوت رسالة نصية كانت لافتة في تلك اللحظة!

كان هاتفي.. أول ما تبادر إلى ذهني أنه كريم.. هل عثر على بتال بعد أن عاد إليه وعيه ثم قام بالتواصل معي؟

أخرجت هاتفي النقال من جيبي وفتحت الرسالة مباشرة.. ولكن..

سقط الهاتف من يدي من هول ما رأيته!

لم أتمالك نفسي حتى وجدت نفسي أستفرغ وأنا أرتجف وأبكي مرعوبة..

التقط يوسف الهاتف كي يشاهد بنفسه ما أوصلني إلى هذه الحالة فجأة..

ثم وجدته يضرب الطاولة بأقسى ما يملك من قوة..

للأسف أخبركم عما كانت تحتويه تلك الرسالة وأنا أعاني جدًا بسبب تلك التفاصيل التي لا أقوى على الحديث عنها، أو حتى مجرد معاودة التفكير فيها..

الرسالة كانت تحمل صورة رأسًا مفصولًا وحده.. كان رأس كريم.

مرفقًا تحتها عبارة مكتوبة تقول:

(خلال 24 ساعة إن لم يصلني الـ USB ستصلك صورة لرأس ابنكِ).

ترخص أرواحنا أمام سلامة أرواح الأبناء..

لذلك لا قيمة للموت إذا كان ثمنه حياة

فلذات أكبادنا!

كنت أبكي على نهاية كريم وأنا غير مصدقة..

فلم يكن بمقدوري أن أتصور ما حصل كله.. حتى لو كان في أبشع الكوابيس..

وصلت إلى أقصى مراحل غضبي ورعبي، كنت فاقدة للسيطرة على كل شيء..

لقد فقدت اثنين دفعة واحدة.. ابني الوحيد بتال، وأقرب الناس كريم.. كنت أشعر حينها أنني قد وصلت إلى أقصى مراحل الخذلان..

هل يعقل أن يوسف كان يتخفى طوال الوقت خلف تلك الشخصية شبه المثالية؟

في السابق كنت أرافق مجرمًا يتخفى خلف ثوب الزوج العاطفي..

واليوم اكتشفت أنني كنت أرافق منقذًا يتخفى خلف ثوب الرجل الشهم!

ضعفي الجسدي لا يُمكنني من مواجهة يوسف وصديقه..

تمنيت حينها لو أنني أملك قوة جسم رجل حتى أنتقم منهما بأية طريقة..

كنت أصرخ على يوسف بأبشع الألفاظ، وأهدده بأن القتل سيكون مصيره لو حصل سوء لابني..

وكان يحاول تهدئتي، ولكن بلا أية فائدة..

طلبت منه أن يعيد إليّ قطعة الـ USB وأن يتركاني أذهب لاستعادة بتال..

فلم يترك لي فرصة لتكرار طلبي حتى وجدته يضعه بين يديّ!

لحظة صمت متبادلة بيننا نحن الثلاثة.. لم أستوعب تصرفه.. تحدث وملامحه تقول شيئًا قبل كلماته.. قائلًا:

- أقسم لكِ إنني أنقذتكِ من الهلاك يا ليلى.

رددت عليه بغضب عارم حيث لم اترك له فرصة بالتبرير أو الشرح:

- المجرمون يتعاملون مع القسم كتعاملهم مع محارم دورات المياه.. لا قيمة لها سوى أن استخدامها يكون لمرة واحدة من دون تكلفة باهظة.

- كفى يا ليلى، لا وقت أمامنا.

- ستحمل دم كريم في عنقكَ إلى يوم الدين، لن نغفر لكَ.

- ليلى.

- اتركني أرحل حتى أستغل ما تبقى من الوقت.

رفض يوسف وصديقه الكولومبي مطالباتي.. وواصلت إرسال أسوأ أنواع الشتائم تجاههما..

ولم تتوقف دموعي على كريم وكذلك على ابني الوحيد.. حاول يوسف تجاهل تصرفاتي العدائية..

لكنه انفجر غاضبًا فجأة!

يبدو أن صبره قد نفد.. فاقترب مني بسرعة مخيفة ثم وضع شاشة هاتفه في محاذاة وجهي وهو يصرخ قائلًا:

- انظري إلى حقيقة كريم يا أُيتها المغفلة.

صرخته المخيفة جعلتني أتوقف عن البكاء، ونظراتي قد اندمجت مع مقطع الفيديو الذي كان يُعرض أمامي.. كنت أتابع غير مصدقة للتفاصيل التي كانت تتوالى كالرماح المسنونة..

بدأ يوسف بتحريك المزيد من الصور والفيديوهات الصادمة..

وبدأ العرق ينساب من على جبيني ومن جسمي كله بشكل مُلاحظ!

أنفاسي تتعالى، وتمنيت لو أن الموت قد أخذني قبل هذه اللحظة.. لا أصدق..

كريم يظهر برفقة لقمان!

في ماليزيا وفي بانكوك، أوضاع مخلة وفي تجمعات لفتيات يعُرضن في مزاد كالذي كنت أقف فيه في ذلك القصر اللعين.. أكاد أفقد عقلي.. كريم!

حالة من الصمت حلّت عليّ.. توقفت عن البكاء، وتوقفت عن الحركة، ولم تستمر سوى أنفاسي التي كانت تشبه صوت احتكاك بكرات عربات القطار.. أعاد يوسف الهاتف إلى جيبه..

ثم بدأ بسرد أبشع التفاصيل..

أخبرني أنه وبعد مغادرتنا من المقهى برفقة كريم نحو الحدود، ظهر هذا الرجل الكولومبي في طريقه وهو يرفع السلاح في وجهه؛ حيث قال:

- كان يسألني عنكِ باحثًا عما بحوزتكِ من دليل، حيث لم يكن

يعلم أنكِ قد قدمتيه لي سابقًا، وكنت مستعدًا أن أقدم حياتي ثمنًا لصمتي.. لكنه صدمني حين عرض صورة كريم وهو يسألني عنه بغضب، هنا أيقنت أنكِ في خطر.

وواصل عرض التفاصيل وواصلت أنا الاستماع بإحباط لا نهاية له..

أخبرني بأنه لم يستوعب ظهور صورة كريم بحوزته؛ فطلب منه الهدوء وإنزال السلاح والحديث بشكل مفصل قبل ضياع الوقت..

وبدأ الرجل الكولومبي بعرض العديد من الإثباتات حول كريم وعلاقاته الإجرامية التي كانت محصورة في اقتناص فتيات مغتربات لا أهل لهم، ومن ثم عرضهن على لقمان وجماعته.. مقابل نسبة مالية يتقاضاها عن كل ضحية..

فهِم منه أن يبحث عن الـ USB من أجل الانتقام من لقمان..

والذي كان قد تسبب في فقدانه لوالده بعد مواجهة دموية مع رجال الأمن، بعد أن أفشى عن مكان وجودهم بعد وقوع الكثير من الخلافات حول المال كما اخبرتكم من قبل..

أخبرني أنه كان يراقبنا منذ أيام قبل أن يفقد أثرنا في ذلك اليوم الذي التقينا فيه مع كريم بالمقهى..

هذا الأمر الخطير جعل يوسف يتحد معه ويعرض عليه عرضًا واضحًا..

وهو إنقاذي وابني مقابل تسليمه القطعة، وتوعد بأنه سينتقم من لقمان شر انتقام..

تأكدت فيما بعد أن كريم للأسف قد وضع لنا المنوم في العصير الذي قدمه لي ولبتال!

وذلك هو سر الخمول والتعب الذي كنت عليه، ويبدو أنه قد سلم ابني إلى أحدهم قبل أن يصطدم بيوسف وخوليو في ذلك النزال.. ومن ثم حصل ما قد حصل حينها..

مؤلم حتى الفظاعة، أن تتلقى الخذلان ممن كنت تعتقد أنهم مصدر الأمان!

أخبرني يوسف أيضًا..

بأن فشل كريم في تسليمي إلى الجماعة الإجرامية، بعد أن سلّم لهم ابني بتال في صفقة مركبة غير مفهومة.. كان ثمنه خلع رأسه من على عنقه!

تحليله الوحيد لتورط كريم ومقتله.. هو أن عصابات الاتجار في الأعضاء والأطفال..

يختلفون عن عصابات الاتجار في البشر والنساء تحديدًا.. ويبدو أن تخلفه عن الوفاء بالاتفاق واكتشافنا لأمره قد أنهى حياته إلى الأبد!

لاحظ يوسف حجم الصدمة التي كنت أعيشها كما لو أنني في وسط دوامة لا تتوقف عن الدوران في وسط محيط لا نهاية لباطنه؛ لذلك حاول تهدئتي بعد أن اقترب مني ليخبرني:

- عليكِ أن تثقي بأن الضيق المُتمكّن منكِ الآن، لن يستمر بالقوة

ذاتها، هي مسألة وقت، وسيتلاشى أو على الأقل سيخفّ تدريجيًا، صدقيني، عليكِ أن تثقي في ذلك.

للأسف، أغلب مشاكلنا تكمن في أننا نترك للعاطفة مهمة تقييم قيمة البعض في حياتنا..

وبناءً على ذلك يكون حجم الصدمة عند اكتشاف حقيقتهم!

لا أصدق، هل كانوا يتحدثون عن زميلي كريم فعلًا؟ أم عن شخص آخر غير الذي أعرف؟!

الدلائل كلها لا يمكن تكذيبها، وللأسف لا يمكن استيعابها..

يبدو أنني قد ظلمت يوسف.. لقد استمات من أجل تحريري من قبضة كريم..

لماذا يا كريم؟ هل كنت مجرد سلعة في نظرك طوال فترة العشرة التي كانت تجمعنا؟

كيف لكَ أن تتصنع الطيبة تلك الفترة كلها؟

بدأت أستذكر بعض الفتيات العاملات معنا اللواتي اخفين فجأة من العمل.. وكان يخبرنا بأنهن غادرن باختيارهن لظروف ليست مقنعة.. لا أنسى محاولاته في إقناعي بقبول عرض الزواج من لقمان، هل كان وسيطًا يهدف إلى كسب حصته بعيدًا عن مصلحتي كما كان يدعّي؟

حتى وداعه معي لم يكن صادقًا؛ بل كان تمثيلًا يستحق عليه جائزة الأوسكار!

علمتْ حينها أن النية هي ما تقود صاحبها.. وعليه أيقنت حينها اليقين كله بأن في حال تعاملك مع الآخرين، فعاملهم بما تمليه عليك نفسك من صفاء، ومهما كانت خفاياهم..

أو ما يحملونه من دنس تجاهك، لا يُحبِطنّك فعلهم معك، فسليم النوايا يربح وإن خسر..

وعديم الشرف يخسر وإن ربح..

لا أصدق يا كريم أنك كنت تنوي إعادتي وابني إلى قبضة لقمان..

عاد يوسف ليواصل عرض بعض المقاطع المصورة الملتقطة لاجتماعات متعددة ما بين لقمان وكريم..

كانت بالصوت والصورة، يحدث ذلك والعجز يطوّق بي.. حتى وصلت إلى أقصى مرحلة من الإحباط..

وانهرت تحت قدمي يوسف.. ترجيته أن يُعيد إليّ ابني مهما كلف الأمر..

كنت أبكي حتى اختفى صوتي من قوة البكاء؛ فسحبني من على الأرض وأجلسني على الكرسي

وأقسم لي إنه لن يهدأ حتى يستعيد ابني ويراه في حضني مجددًا، ثم تحدث لينتشلني من الخذلان الذي تجرعته من وراء غدر كريم، قائلًا:

- لا تهدري أية دقيقة من وقتكِ في التفكير فيمن لا يستحق ذلك، إن ما حدثَ هو أمر أرادت أن تخبركِ به عدالة السماء، بأنه لن يفلح

أبدًا مهما خطط ودبّر، كل من اختار ترتيب حياته، على حساب بعثرة حياة الآخرين.

كنت أتأمل كلماته العميقة وأنا مندهشة، لامس قلبي المتعب وكأنه يعلم عن ثغراته التي يتسلل من خلالها الألم إلى روحي، فعلًا كريم لا يستحق حتى مجرد الحزن..

تدخل خوليو غاضبًا متحدثًا الإنجليزية السيئة جدًا:

- إن كان يحزنكِ أمر المدعو كريم فتأكدي بأنه وبعض القتلى من الهاربين قد تكفل أفراد العصابات المتصارعة هناك عند الحدود بعملية دفنهم(11)

لم أحتمل بشاعة الحديث الذي كان يلقيه أمامي، كدت أشعر بالكثير من بالغثيان..

ورغبة في مواصلة البكاء من هول الموقف.. لكنه عاد مواصلًا غضبه وهو يقول متذمرًا:

- البكاء لا يغير الأخطار، العمل وحده من يمكنه فعل ذلك، لم يتبقَ أمامنا الكثير، توقفوا عن الثرثرة غير المجدية.

نظرنا إليه.. حتى سأله يوسف وهو في حيرة من أمره:

- ماذا تقترح؟

لم يرد بالكلمات، لكنه قام بإحضار حقيبة قماشية زيتية اللون، ووضعها على الطاولة..

ثم فتحها وأخرج منها حزام يحمل العديد من أصابع المتفجرات!

دهشة احتلت ملامحنا أنا ويوسف..

لم نتوقع أن تظهر أمامنا هذه المواد الخطيرة في هذا التوقيت؛ فلأول مرة أشاهدها على الطبيعة..

تحدث خوليو بثقة عالية:

- لا وقت للدهشة، حان وقت العمل.

تدخل يوسف غاضبًا ليخاطب خوليو قائلًا:

- هل جننت؟ نحن مطلوبون في جرائم فرضتها علينا الظروف، أتريد توريطنا هذه المرة في أعمال إرهابية؟ تخلص منها فورًا.

- لن تستعيد هذه المرأة ابنها من المجرمين سوى بعمل إجرامي.

- لن أسمح لكَ أن تورطها يا خوليو.

هنا وجدت نفسي أتداخل في الحديث، حيث قاطعتهما قائلة وبحدة غير معهودة:

- الأمر يخصني بشكل مباشر، لا يهمني الحقير لقمان ولا الأدلة التي بحوزتنا ضده، أريد استعادة ابني ولو على حساب حياتي.

نظر إليّ يوسف نظرة تعجب، فلم يعهد مني هذه النبرة المتهورة من قبل، كان قد اعتاد عليّ في ثوب الضعف والخوف والحاجة إلى الحماية، ولأول مرة يرى وجهًا غير مألوف عليّ، أتفهم ذلك، حتى أنا لم أفهم نفسي في تلك اللحظة، ولكن عندما يمس الأمر ابني بتال، تتلاشى فكرة الخوف من قاموسي، سألت الكولومبي خوليو بشكل مباشر:

- ما خُطتكَ؟

نظر نحو يوسف ثم عاد بالنظر إليّ وهو يرفع الحزام الملغم، ثم قال:

- سأربط هذا الحزام حول خصركِ تحت ملابسكِ، ثم ستتوجهين إلى الموقع الذي سيرسله لقمان إلينا بعد مراسلته.. ستسلمينه الـ USB مقابل تحرير ابنكِ.

ثم واصل شرح خُطته المتهورة، أخبرني عند مواجهة لقمان مباشرة، عليّ أن أخبره عن المتفجرات..

وأخبره بشكل واضح وبكل ثقة، بأن هناك من يتحكم بها عن بُعد في حال محاولته للمراوغة..

وحينها سندفع الثمن جميعًا، ولن يخرج أحدنا من المكان وهو على قيد الحياة..

تعطلت قدرتي على الكلام، هذا المجنون يريد مني ممارسة دور الانتحاري!

يطلب ذلك من شخص لأول مرة يشاهد متفجرات على الطبيعة -ليس ذلك فحسب- بل يريد منه أن يلفها حول جسمه ويعاملها كمعاملة سترة رقص شرقية!!

عاد يوسف ليجدد رفضه بشكل أكبر، رافضًا المخاطرة بحياتي، وطلب من خوليو أن يغير الفكرة كليًا وألا يستخدمني في المهمة، واقترح أن يقوم هو بالمهمة.. معللًا أنه يبحث عن الانتقام أيضًا..

وبينما كان الجدل يزداد فيما بينهما، كنت أنا أنظر إلى ساعة هاتفي..

ولم يكن يسكن تفكيري ويشغله سوى صورة ابني بتال..

طلبت منهما التوقف عن التراشق والصراخ، وسألت خوليو بوضوح:

- ما نسبة نجاح هذه هي العملية؟

تدخل يوسف معترضًا على تجاوبي للحديث، لكنني طلبت منه الصمت؛ حتى أستمع إلى الإجابة الكاملة من خوليو، والذي وجدناه قد أجاب إجابة ليست مطمئنة، حين قال:

- لا أتنبأ بالغيبيات، ولكن هناك أمر أراهن عليه كثيرًا.

- ما هو؟

- المعروف عن لقمان أنه يخشى المتفجرات كثيرًا وبشكل مضحك والسبب وفاة والدته في تفجير إرهابي قبل عشر سنوات؛ حيث نجا هو بمعجزة، وقد لاحظنا ذلك مرارًا في عملياتنا الأخيرة.

بدا لي من حديثه أن نسبة نجاح العملية لا تتجاوز الـ 50%، ولأنها تخص تحرير ابني بتال..

لن أتردد في أن ألقي بنفسي في المحيط لو كان ذلك سببًا في نجاته وعودته إلى اليابسة سالمًا؛

لذلك ودون المزيد من التساؤلات.. وافقت!

رضخ يوسف لإصراري وهو غير مقتنع أبدًا.. لكنه لا يملك الحل

البديل.. خصوصًا أن الوقت قد بدأ ينزف من بين أيدينا، واحتمالية تنفيذ لقمان لتهديده في حق ابني واردة جدًا للأسف..

وفي خلال ربع ساعة تقريبًا.. كنتُ جاهزة.

الحزام الملغم قد التف حولي خصري من تحت ملابسي، وقطعة الـ USB في جيبي..

أرسلتُ بعدها إلى لقمان رسالة نصية تكشف عن رغبتي في الحضور وتنفيذ الاتفاق..

وفي أقل من دقيقة، أرسل الموقع إليّ وكتب تحته:

(إن لم تحضري خلال نصف ساعة سيتم تغيير الموقع لوقت آخر غير معلوم).

يبدو أنه كان ينتظر تجاوبي مع رسالته وهو على أحرّ من الجمر!

نظر يوسف إلى خوليو ثم سأله مستفسرًا:

- لماذا لا نقوم بنسخة احتياطية من البيانات التي بالـ USB؟

- ومَن أخبرك أن فكرة عادية كهذه لم تخطر على بالي، للأسف لا يمكننا فعل ذلك، المعلومات محفوظة بشفرات لا يمكن نقلها أبدًا؛ لهذا يستميت لقمان من أجل استعادته مهما كلفه الأمر كما ترى.

اللعنة عليهم وعلى تقنياتهم ومخططاتهم الحقيرة..

المهم أننا تحركنا بسرعة إلى الموقع، بعد أن اتفقنا على جميع التفاصيل..

تسارع الأحداث بالنسبة إليّ كان أمرًا يشبه الحُلم، لم أكن أصدق أنني سأعود بنفسي إلى لقمان مجددًا،

ولكن هذه المرة بعملية انتحارية مع وقف التنفيذ!

وبالفعل، وصلنا بالقرب من المكان المحدد، أشار لي خوليو إلى الموقع..

ثم طلب مني أن أترجل من السيارة وأكمل الطريق سيرًا على الأقدام حتى لا يتعقبه أي منهم..

مشيت مسافة ليست بسيطة، كان طريقًا ترابيًا محاطًا ببعض الأشجار المتفرقة..

حتى وصلت أخيرًا..

وجدت الموقع عبارة عن حوش متهالك يقع في منتصف منزل مهجور..

لم يكن أمامي أي خيار سوى المواصلة، تقدمت بحذر وأنا أتلفت وأستكشف المكان من حولي..

حتى اقتربت نحو الدرج المؤدي إلى داخل المنزل المشبوه..

ظهر أحدهم فجأة، يحمل سلاحه بين يديه، وطلب مني الدخول، قبل أن يسبقني وأتبعه بحذر..

كان صوت نبضاتي يلامس طبلة أذني، حدث ذلك من فرط الرعب حينها..

وبعد أن تقدمت بخطوات متثاقلة، وجدت نفسي في منتصف

مدخل المنزل..

هنا ظهر لقمان ورجاله!

وفي مشهد درامي مهيب لا نشاهده إلا في الأفلام البوليسية.. كادت أن تتجمد الدماء في عروقي..

منظره برفقة رجاله منظر لا يمكن وصفه.. تحدث بنبرة صوته التي لا أطيقها ولغته الإنجليزية المستفزة:

- أخيرًا أيتها الخائنة، لم أتوقع مجيئكِ بهذه السرعة، لديكِ قائمة طويلة من التكاليف ينبغي عليكِ تسديدها.

ثم وجّه سلاحه إلى منتصف وجهي، وبدأ يقترب نحوي.. والشر كله الذي في هذا الكوكب قد اجتمع على محياه الكئيب.. تراجعت بخطواتي إلى الخلف قبل أن أكشف له عن الحزام الملغم..

هنا توقف لقمان مرعوبًا وغير متوقع لهذا السيناريو أبدًا، رفع أتباعه أسلحتهم نحوي..

لكن لقمان أمرهم مرتبكًا بإنزالها فورًا.. قبل أن يسألني وهو يرتعد كما بدا لي:

- لم يكن هذا اتفاقنا أيتها المجنونة.

استجمعت قواي كلها وأخرجت مختصر الكلام من داخلي بصعوبة وأنا أتظاهر بثوب القوة..

على الرغم من حالتي المزرية بسبب الرعب واختلاطه مع حالة الغضب التي كانت بداخلي..

سألته بحدة واضحة:

- أين بتال؟ سأسلمك ما تريد.. لكن أعد لي ابني ثم غادروا فورًا قبل أن تنفجر هذه المتفجرات، وتتناثر أشلاؤنا ونذهب جميعنا إلى آخر السماء.

بدأ رجاله يتحدثون مع بعضهم بلغتهم الآسيوية وبطريقة تحمل الغضب؛

فأصابني هذا الأمر بالكثير من التوتر، فأرسلت لهم تهديدًا مباشرًا حتى أشتت تركيزهم، قائلة:

- حتى وإن أطلق أحدكم عليّ النار، مَن يتحكم في المتفجرات شخص خارج هذا الموقع، بمجرد أن يصله الإشعار بغدركم سيفجرني ومن ثم سيدمر معي مَن في المكان كلهم.

لم يتوقع لقمان هذا السيناريو الذي كان يعيشه برفقة رجاله..

كان يضغط على أسنانه غاضبًا وعيناه يتطاير منهما الشرر، لكن الرعب الذي كان يسيطر عليه بسبب رؤيته للمتفجرات، كان قد غير جميع مخططاته، تمامًا كما أخبرنا خوليو..

لقد رضخ للأمر الواقع، واختار نجاته بدلًا من دخوله في معمعة لا فائدة منها؛

وعليه أمر بإحضار ابني بتال..

حضر بتال وكأن النور قد حضر معه فور ظهوره أمامي!

لم أصدق أن عينيّ تنظران إليه مجددًا بعد هذا الغياب القسري..

كان ينظر إليّ وملامحه تختصر كل شيء.. لم يصدق الحالة التي كنت عليها..

كنت على هيئة لم يعهدها من قبل، ركض نحوي وتجاهل المتفجرات، واحتضنته وأنا أحاول السيطرة على دموعي والموقف ككل، لم يكن الظرف مناسبًا للعاطفة أو لترجمة المشاعر بالبكاء؛

لذلك صرخ لقمان غاضبًا وهو يطلب مني تسليمه الـ USB حذفته نحوه وأنا أهددهم بوضوح:

- تحذير لكَ ولرجالكَ، غادروا فورًا وابتعدوا عن الموقع، هناك العديد من الرجال يراقبون المكان من زوايا متعددة، ومَن تُسول له نفسه بالاختباء أو التراجع عن الاتفاق المبرم سيدفع حياته ثمنًا لفعلته، الآن بحوزتك يا لقمان ما تريد اتركني قبل أن نخسر جميعًا.

نظر إلى القطعة ليتأكد منها، ثم نظر إليّ لثوانٍ، قبل أن يبصق باتجاهي غاضبًا..

ويغادر وخلفه رجاله المجرمين، تأكدت من مغادرة آخر رجل منهم، وعدت لاحتضان ابني بتال حضنًا وكأنه أعادني إلى الحياة من جديد..

كان يُقبلني كثيرًا وكأنه غير مصدق لعودته إلى حضني.. قبلاته تختصر مئات الكلمات التي لا يقوى على نطقها، لكنها كانت أكثر عمقًا ومعنى وبلاغة.. تترجم لي ما يحمله تجاهي كله..

كنت أعتصر ألمًا من الداخل، فلم أتمنَ يومًا أن يعيش ابني ولو للحظات مثل هذه المواقف الشنيعة التي تفوق مرحلته العمرية

بمراحل.. لكن يبدو أنني قد اعتدت على التألم في كل مرة من أجله..

للأسف قد نعتاد الألم حتى يصبح رفيقًا مرحّبًا به، خصوصًا إذا كان الثمن المقابل هو بقاء مَن نحب!

بقينا لدقائق.. فقد كنت أنتظر الأمر من يوسف بالتحرك من عدمه.. وقد وصل..

ركضنا إلى الخارج فورًا، وبمجرد وصولنا إلى الشارع الخالي..

ظهرت سيارة خوليو برفقة يوسف، كانا يضحكان فرحًا بإنجاز المهمة..

ركبنا وغادرنا إلى أبعد وجهه ممكنة ونحن متخفون عن الأنظار، ولم أصدق أنني قد نجحت واستعدت ابني من بين أنياب ذلك الوحش..

التفت إليّ يوسف وهو يبتسم، ولم أجد نفسي إلا وأن أبادله ذلك، تذكرت حينها حجم الشتائم التي قد أرسلتها إليه لحظة غضبي؛ فشعرت بالإحراج الكبير، فالتهديدات كلها التي تتولّد في دواخلنا لحظة الغضب.. قد تتلاشى مع أول ابتسامةٍ من أحدهم، وكأنها لم تكن..

هناك نوع من المصائب تُشبه المقبِلات..

تتعامل معها ظنًّا منكَ أنها وجبة العشاء بسبب كميتها الكبيرة..

وما أن تفرغ منها حتى تكتشف أنك لم تبدأ بعد

في الوجبة الرئيسية!

وصلنا إلى بيت خشبي صغير.. ودخلنا إليه..

كان أحد البيوت التي يرتادها خوليو مع عشيقاته كما أخبرنا..

طلب مني يوسف تبديل شريحتي فورًا، وقد كان ذلك، بعدها تقدم خوليو نحوي حتى يساعدني في خلع الحزام الملغم بالمتفجرات من حول خصري.. لكن يوسف تدخل وطلب منه أن يقوم هو بذلك..

أخبره خوليو أن هذا الأمر خطير جدًا ويتطلب شخص مختص مثله.. لكن يوسف كان يرفض أن يقترب مني أو يلمسني مجددًا!

شعرت بغيرة غير مفهومة، وبعد عراك بالأحاديث كاد أن يرقى إلى أن يصل لاستخدام الأيادي..

وافق يوسف مجبرًا حفاظًا على سلامتي؛ فتقدم خوليو لنزع الحزام وسط نظرات ابني بتال..

وعلى وقع أنفاس يوسف التي كانت واضحة جدًا بشكل لافت..

وما أن فرغ من مهمته حتى تنفسنا الصعداء أخيرًا،

ولكن أطلق خوليو ضحكاته في أرجاء المكان بشكل غير مفهوم!

قبل أن يحذف الحزام على يوسف والذي ابتعد مرعوبًا من تصرفه، فتوجه نحوي ونحو ابني بتال حتى يحمينا من انفجار محتمل!

ولكن لم نسمع أي صوت سوى استمرار صوت ضحكات خوليو.. حيث أخبرنا وبكل برود:

- أنتما ولقمان والجميع صدقتم أنها متفجرات حقيقية، هذه ليست سوى نسخة وهمية تستخدم في صناعة مشاهد الأفلام، قررت

استخدامها في عمليتنا المجنونة.

ثم واصل ضحكاته، هنا لم يتمالك يوسف أعصابه فتهجم عليه وكاد أن يلكمه على وجهه..

قبل أن أتدخل وأطلب منه التحلي بالصبر والحكمة، ثم نظرت إلى خوليو وأنا مصدومة من حديثه وفعلته غير المتوقعة، لكنه عاد ليواصل حديثه مبررًا:

- كان يجب أن أجعلكما تنفذان الخُطة بحذر شديد، ولو أخبرتكما عن الحقيقة لما تعاملتما مع الظروف بمثل هذا الإتقان الكبير، أرجوكما لا تغضبا، المهم أننا نجحنا وخدعنا لقمان.

لم تنتهِ مفاجآته بعد؛ حيث كان الفصل الأهم والأبرز معه، حين أخرج من جيبه قطعة الـ USB وبدأ يلوحّ بها راقصًا وبسخرية، كان يفعل ذلك وهو يواصل كشف حقيقة خُططه الصادمة قائلًا:

- هذه هي النسخة الأصلية، النسخة التي سلمناها إلى المغفل لقمان مجرد نسخة شبيهة، مليئة بالكثير من أفلام الكرتون.. أتمنى له مشاهدة ممتعة.

ثم أطلق ضحكاته ولم يتمالك يوسف نفسه حتى شاركه الضحك، فوجدت نفسي وابني بتال نشاركهما ذلك بلا تردد، شر البلية ما يُضحك فعلًا، كيف لهذا الكولومبي المخادع أن مرر علينا جميعًا مثل تلك المخططات؟!

يبدو أن في هذه البيئة الإجرامية والتي تورطت بها أن الجميع يكذب؛ هناك من كُشف أمره..

وهناك مَن -لا يزال- على قائمة الانتظار..

لقد خطط لكل شيء بحبكة لا تخطر على البال، والجميع بلع الطعم ونفذ مخططه كما رسمها تمامًا..

أكاد لا أصدق.. حتمًا لن يتركنا لقمان بعد أن يتكشف الأمر..

لكنني كنت سعيدة بتلك التفاصيل كلها، فأمثاله يستحقون هذا الواقع وأكثر..

هكذا هم مع بعضهم البعض، غالبًا المجرم لا يعترف بجرائمه؛ بل إنه قد يمارسها بقناعة مشروعة بوجهة نظره، ولا يطرأ على باله أن للدنيا دوائر ليست مضمونة، ويستمر في طغيانه إلى يأتي مجرم أكبر وأقوى منه.. يجعله يتجرع أضعاف ما تجرعه ضحاياه بسببه من قبل..

ووسط هذا الصراع الدائر كله، لا يهمني سوى أنني قد استعدت أغلى ما أملكه في هذه الدنيا البغيضة..

ابني الغالي بتال..

لا أنسى موقفه العفوي الذي غيّر نظرتي تجاه الكثير من الأمور، حين بقينا في المنزل الخشبي قرابة اليومين..

نحاول التأقلم مع المرحلة، وننتظر موعد خطوتنا القادمة، أذكر ذلك اليوم جيدًا والذي وجدت فيه بتال قد اقترب مني وهو يخبئ خلف ظهره شيئًا ما..

اقترب مني وهو يبتسم، ثم قبّلني على خدي وقدم لي ورقة

صغيرة..

قرأت ما تحمله من كلمات، ثم نظرت إليه والدموع أوشكت على أن تكتسح عينيّ المرهقتين..

ثم حضنته بقوتي كلها كما لو أنني زرعته بداخل أضلعي زرعًا..

كانت الورقة تحمل عبارة تعكس ما يريد أن يعبر عنه تجاهي كله، ودون استخدام الأحاديث المسموعة؛

حيث كتب عليها:

(أمي لا تَخاف... أمي القوية... أحبكِ جدًا).

شعرت حينها أنني قد استطعت ولأول مرة أن أدخل إلى قلبه الأمان..

بالفعل لا بالقول فقط، شعرت بقيمتي الحقيقية في عينيه، بدا لي أنه قد تأثر كثيرًا بعد إنقاذي له وشجاعتي بعد المخاطرة بحياتي؛ وذلك بارتداء حزام المتفجرات ومواجهة ذلك الكم الكبير من أشباه الرجال وحدي؛ ولذلك أراد أن يعبّر لي عما كان يشعر به نحوي..

لطالما كان يعذبني ضميري كلما نظرت إليه وهو مجهد.. لا ذنب له فيما يحدث..

سوى أن القدر قد اختار له أن يأتي إلى هذه الدنيا وسط هذه الظروف المدمرة للنفس البشرية كلها؛

لذلك كنت أسعى السعي كله إلى محاولة تخليصه من هذا البؤس كله..

حتى لو كان ذلك على حساب حياتي..

قبّلت الورقة واحتفظت بها في جيبي.. ولن أضيّعها طوال العمر..

عدت للتفكير بما ستنتظرنا من أحداث.. فبعد أن هدأ الوضع جزئيًا في المكان..

سألت يوسف وخوليو عن الخُطة التالية..

كنت أرغب في المغادرة فورًا، وكان ذلك رأي يوسف أيضًا، لكن خوليو كان له رأي مخالف!

أخبرنا عن الاستنفار المتوقع الذي سيكون مثل الموج الهائج من لقمان فور اكتشافه للخدعة التي انطلت عليه، وشدد على أن مجرد التفكير في الخروج عبر الحدود حاليًا هو بمثابة إضاعة للجهود كلها..

وعليه اقترح الكولومبي المجنون قائلًا:

- ما علينا فعله كله هو أن نسبق لقمان بخطوة.

كان يشرح لنا كيف سنلاعبهم بطريقة تفقدهم تركيزهم وتبعثر اتحادهم..

وجدته يتحدث بثقة تعكس حجم الخبرة التي يملكها، مرعبة جدًا طريقته في التفكير والتخطيط..

لا تشبهنا أبدًا، ولا تتقاطع مع جميع اجتهاداتنا السابقة، تداخل يوسف معه متسائلًا:

- ألم تصبح الأدلة في حوزتكَ! لماذا لا تخلص هذه المسكينة

وابنها؟

اقترب خوليو منه وأمسك يد يوسف اليمنى ووضع فيها الـ USB، ثم قال وعيناه موجهتان إلى منتصف عينيه مباشرة:

- احتفظ به إن كنت لا تثق بي، هذا هو طوق النجاة لنا جميعًا.

أصابتنا دهشة مفاجئة من هذا التصرف، لم نتوقع هذا الفعل من خوليو قَط..

هل هي لعبة من ألاعيبه؟ الحقيقة لا يمكننا جزم ذلك، لكننا لا نملك إلا نتمسك بأي خيط نجاة يُخرجنا من هيجان المحيط وتلاطم أمواجه التي لا تعرف الرأفة.. ثم عاد ليكمل حديثه قائلًا:

- لا أريد هذه القطعة اللعينة.. أريد الانتقام من الخسيس لقمان وإقصاءه عن المشهد كليًا، عليه أن يدفع ثمن خيانته لجماعتنا وتسببه في مقتل والدي ثمنًا باهظًا.

كانت رغبته في الثأر واضحة جدًا من نبرة صوته وملامحه..

وقد كان ذلك من صالحنا، وجوده إضافة إيجابية ترتب لنا تحركاتنا العشوائية..

تحدث طالبًا منا بأن نتجهز من أجل المغادرة وهو يقول:

- سنلتقي مع صانع محتوى على موقع اليوتيوب، استرالي شهير.

أمسك يوسف رأسه وكأنه أوشك على فقدان طاقته في الصبر ثم تساءل:

- وما علاقة الكوارث التي نعاني منها بهذا المشوار الغريب؟

- وحده مَن يمكنه أن يبث الشك في صفوف لقمان وأصدقائه.

ثم أخبرنا عن خُطته الجريئة والخطيرة؛ كان يريد خوليو أن يسرب بعض المعلومات إلى صديقه اليوتوبير؛

وهدفه من ذلك أن يخلق بعضًا من الفوضى، فهذا الأسترالي والذي يعيش في ميانمار برفقة والدته الميانمارية.. لديه قناة تضم مئات الآلاف من المشتركين.. ومشاهدات مليونية لجميع المواد المرئية التي ينشرها على قناته.. والتي غالبًا ما تصنع تفاعلًا ورأيًا عامًا يحرك المياه الراكدة..

باختصار كان يرغب أن يحرك رجال الأمن تجاه لقمان ومن معه؛ حتى يغير مخططاتهم وأولوياتهم في مطاردتنا، وكأنه يرغب أن يجعل الجهات الأمنية يعملون من أجلنا.. ولكن بطريقة غير مباشرة!

فكرة مجنونة كعادة أفكاره التي لا تتوقف عن التبلور، شعرت أن هناك قبول من يوسف..

حتى اقترب مني ومن صغيري بتال وهو يخبرني بلهجته السعودية الجميلة والتي اعتادت عليها أُذنيّ:

- وكّلي الله... وبإذن إللي ما تنام تفرج من عنده.

كلماته هذه بالتحديد.. كانت في مكانها وفي التوقيت الصحيح فعلًا..

كان لها وقع خاص على قلبي المتعب؛ حتى ابني بتال، وجدته يبتسم وهو ينظر إلى يوسف..

وعندما يبتسم بتال، تبتسم لي الحياة رغمًا عن بشاعتها..

توجهنا ليلًا إلى وجهتنا المحددة كما خطط لها الكولومبي خوليو..

كانت شقة في الدور السابع في بناية وسط حي مكتظ بالبنايات..

لم يكن يبعد عنا كثيرًا..

واستقبلنا صانع المحتوى الأسترالي بكل ترحاب وبشاشة والذي بدا سعيدًا بعد لقائه بصديقه خوليو..

جلستُ وجلس ابني بتال بجانبي، ثم قدّم لنا الشاي..

وبدأ الكولومبي خوليو في استعراض خُطته وسرد بعض المعلومات من على القطعة البلاستيكية على جهاز اليوتيوبر.. وكان الشاب الأسترالي مذهولًا من خطورة ما تحمله تلك الملفات..

لكن حماسته كانت لافتة.. وتصرفاته كذلك والتي تنوعت ما بين الضحك والفرح..

شعرتُ كما لو أنه قد عثر على كنز ثمين سيرفع من مشاهداته ويزيد من شعبيته..

وافق مباشرة وقام بحضن صديقه خوليو وشكره على هذه المادة الدسمة على حدّ قوله..

ثم طلب عينة من تلك الفيديوهات والصور الخطيرة؛ حتى يستعرضها بطريقته الخاصة كي يوثق معلوماته التي سيقدمها لجمهوره العريض والمتعطش، وقد كان ذلك..

كنتُ أتبادل النظرات أنا ويوسف، وكأن الحيرة قد سيطرت علينا

في تلك الجلسة..

لكن لم نكن نملك سوى الاستمرار وانتظار النتائج..

وكأن هناك قناعة داخلية بداخل كل واحد منّا تخبرنا بأن ما مضى لن يكون أخطر مما سيأتي..

انتهى ذلك اللقاء.. وغادرنا متخفين كعادتنا.. عائدين إلى البيت الخشبي نفسه..

ننتظر الخطوة القادمة، التي لا تحمل شيئًا من الوضوح..

لا نملك سوى الانتظار والتعامل مع المعطيات والتي غالبًا ما كانت تظهر فجأة ودون مقدمات!

في اليوم التالي.. بعد الظهيرة تقريبًا..

وبعد نومة غير مريحة كالعادة، وبينما كنا نتناول الطعام أنا وبتال برفقة يوسف..

عاد خوليو ووجهه يتوهج بالفرح، دخل علينا وهو يرقص ويغني أغاني لاتينية ليست مفهومة..

لكنها جميلة كطبيعة لغتهم اللافتة..

نظر ثلاثتنا إلى بعضنا البعض بعد أن توقفنا عن مواصلة تناول الطعام..

ثم وجدنا أنفسنا ننصت إلى ما يقوله.. اقترب منّا وهو يعرض علينا حجم التفاعل تجاه الفيديو الذي بثه صديقه الأسترالي هذا الصباح.. لم نستوعب عدد المشاهدات المتصاعد ولا عدد التعليقات التي لم

تتوقف!

شعرت بالخوف حينها، لم أتوقع أن تأخذ الأمور هذا المنعطف الرهيب بهذا الشكل قَط..

حتى يوسف وجدته قلقًا بعض الشيء.. سألته عن رأيه في هذا التطور السريع تجاه الموضوع؛ فأجابني وهو ينظر إلى الأرض:

- لا أعلم، ولكن يجب علينا أن نستغل الظرف فور توافر الفرصة، ونخرجكِ أنتِ وبتال في أقرب وقت من وسط هذا الخراب كله.

مرت الساعات حتى بدأت بعض الأخبار فى الانتشار؛

أخبار تفيد بالقبض على بعض الرجال من العصابات التي تربطهم مع لقمان علاقة مصالح مشتركة في جرائمه الحقيرة، يبدو أن خُطة خوليو تسير كما خطط لها تمامًا!

لقد أدخل الشك فيما بينهم، أقلق مضاجعهم، لفت الأنظار إليهم؛ مما دفع الجهات الأمنية للتحرك بدلًا من السبات.. لقد لقنهم درسًا لن ينسوه طوال حياتهم التي لا تستحق الاستمرار..

فالسعادة التي تُبنى على تعاسة الآخرين هي سعادة هشة، ومهما تقدمت فإنها حتمًا لن تدوم..

بقينا متخفين في المنزل نتابع الأخبار وتطوراتها..

حتى اقتربت الساعة من التاسعة ليلًا، وبينما كنا منهمكين في الأحاديث ومحاولات السيطرة على القلق،

وصلت رسالة نصية إلى هاتف خوليو غيرت الموازين كلها..

وحولت فرحته بالانتصار إلى صدمة ارتسمت على ملامحه المجعدة!

لاحظنا ذلك التغيير الذي حضر عليه بعد مشاهدته لشاشة هاتفه.. ألقى هاتفه على الطاولة ثم وضع يديه على رأسه غاضبًا مما رأى.. قبل أن ينهض من كرسيه وهو يشتم بأبشع الألفاظ!

التقط يوسف هاتف خوليو كي يكتشف سبب غضبه المفاجئ.. وبدا لي أن الدهشة المخيفة نفسها قد تشكلت على وجهه أيضًا.. اقتربت منه كي أشاهد ما يحتويه الهاتف..

ويا ليتني لم أتطفل لاكتشاف الأمر.. كانت صورة لرأس اليوتيوبر الأسترالي!

غارقًا وسط دمائه وبجانبه مسدس كبير وبعض الطلقات.. كُتب تحتها بالإنجليزية عبارة تحذير ووعيد..

كان مفادها يقول:

(لن تفلتوا من فعلتكم... ستلقون مصيره).

دبّ الرعب في قلبي، بل اجتاح جسمي كله؛ فعدت للجلوس إلى جانب ابني بتال وأنا أتمتم بأنواع الأذكار والأدعية كلها طالبة السلامة والنجاة، للأسف ذهب صانع المحتوى ضحية لجرأته..

نحن نتعامل مع أناس لا لغة لهم سوى لغة السلاح، ولغة قطع الرؤوس!

شعرت حينها بتأنيب الضمير وشاركني يوسف ذلك الشعور، لكننا

لم نشعر أن خوليو قد أصابه ذلك قَط، يبدو أن بداخله تبلد قد تشكل مع نشأته في وحل الإجرام طوال حياته..

حيث خرج متنرفزًا إلى الشرفة كي يجري العديد من الاتصالات..

وكان يوسف يحاول تهدئتي واحتواء رعبي، بلا أية فائدة، نهض ابني بتال واحتضنني طالبًا مني الهدوء..

فعل ذلك وهو يربت بيده اليسرى على كتفي، وتسلل إليّ شعور يخبرني كما لو أنه قد كان حينها يتقمص دور رجلي الصغير..

ابتسمت له لعل وعسى أن أطمئنه قليلًا، وكان ذلك ما يمكننى فعله كله مثل العادة..

وجدت نفسي أتحدث بصوت مسموع مليئًا بالرجفة، قائلة:

- أكاد أيقن بأن البشر هم أبشع مخلوقات الأرض.

التفت إليّ يوسف وتساءل مستغربًا:

- البشر! وكيف توصلتِ إلى هذه القناعة الإقصائية؟

- لأنهم الوحيدون القادرون على صناعة الأسلحة.

صمت يوسف وكأنه كان يتأمل إجابتي المؤلمة، فلم يجد أية عبارة تلطيفية يشارك بها مبررًا لبشاعة بنى البشر.. سوى أن يكتفى بالسكوت والتفكر..

مرت الساعات.. ولم تهدأ الأمور في المكان..

وسط استمرار الأخبار حول اشتباكات متعددة بين رجال

العصابات ورجال الأمن في ميانمار هناك.. كان خوليو يخطط بدقة عالية بترتيب التفاصيل كلها التي تضمن خروجي وابني من هذا الصراع عبر الحدود.. يُجري اتصالاته، ويحاول الاتفاق مع جميع الأشخاص الثقات الذين يثق فيهم في تعاملاته غير المشروعة.. لكن هناك كانت مشكلة!

المال... اللغة التي تتصدر جميع التعاملات مع هؤلاء الوحوش، لم يكن الكولومبي خوليو متعاطفًا معي ومع طفلي قَط، ولم يكن متقبلًا لوجود يوسف وتدخلاته..

لكنه كان يفعل ذلك كله كرهًا وانتقامًا من لقمان؛ لذلك لم يراعِ ظروفنا حين طلب المال من أجل تسهيل عملية الهروب..

ومن حسن حظنا أن الوقت لم يسعف يوسف بتحويل المال الذي طلبه كريم بعد ذلك اللقاء المنحوس والذي لا أريد تذكره أبدًا؛ لذلك وافق يوسف بعد مفاوضات وطلبه بتخفيض المبلغ المطلوب من قبل خوليو..

قرر تحويل المال إلى الحساب المتفق عليه والموجود في أحد بنوك تايلاند، فور ضمان خروجي عبر الحدود..

ولم يمانع خوليو أبدًا لأنه كان واثقًا من قدراته؛ حيث قال لنا وبكل وضوح:

- يمكننا الوصول إليكم في أي مكان في العالم لو سوّلت لكم أنفسكم المراوغة، لا تنسى أن الاتفاقات معنا مقدسة.. خصوصًا إذا كانت مادية.

طمأنه يوسف بعد أن استفزه هذا التهديد المبطن قائلًا:

- لا نجيد الأقوال، قاموسنا لا يحتوي إلا على الأفعال الواضحة.. وتأكد سيصلكَ أجركَ.. قبل أن يجف عرقكَ النتن يا خوليو.

ابتسم حينها، ثم أخبرنا بأن نكون جاهزين طوال اليوم؛ لأن الضوء الأخضر قد يصلنا بالتحرك نحو الحدود في أية لحظة، فضياع بعض الوقت في مثل هذه المواقف قد يبعثر التخطيط كله..

لطالما تعلمنا أن الصبر مفتاح الفرج، هي مقولة رائعة لكنها ليس صحيحة دائمًا..

ولكن هناك نوع من الفرص الثمينة انتظارك أمامها يعني ضياعها إلى الأبد!

مرت علينا ساعات عصيبة من الانتظار..

جهزت حقيبتي وتأكدت من جميع أغراضي المهمة، وبالإضافة إلى بعض الأطعمة والماء..

ثم تناولنا بعض المعلبات، فاصوليا حمراء وتونة وبعضًا من الذرة، كي لا يشغلنا الجوع عن التفكير..

لكن التوتر كان يتصاعد، ورسم السيناريوهات في المخيلة لا يتوقف..

سيناريو مبهج ينتهي بالنجاة، يقاطعه سيناريو آخر ينتهي بالسوء، وتضاربت بالأفكار في لحظة

كنت أشعر فيها بفقدان السيطرة على الهدوء، لكنني كنت مجبرة

على محاولة المحافظة على ما تبقى من الاتزان؛ حتى لا أنقل الرهبة إلى صغيري بتال، ومَن يستطيع أن يسيطر على توتره كليًا!

فهو شعور مستفز يباغتنا فجأة، ومهمته إفساد مكامن الهدوء كلها في دواخلنا، والمنتصر أمامه..

هو مَن ينجح في تجاوزه بأقل الخسائر..

وبعد مدة من القلق غير المتقطع، وعند منتصف الليل، نهض خوليو وأعلن موعد التحرك!

اقترب مني يوسف بعد أن لاحظ الرجفة التي كانت تلاعب قدمي، وحدثني بهدوء:

- أنتِ أم شجاعة، مَن تجاوزت الماضي الخطير، يمكنها تجاوز الأمتار الأخيرة من هذا السباق الذي نخوضه مجبرين يا ليلى.

نظرت إليه وعيناي تترجمان صور الحاجة إلى الأمان كلها، ثم سألته:

- هل سننجح يا يوسف؟

- لن نرضى بغير النجاح، كوني واثقة.

كان لحديثه تأثيرًا جزئيًا على نفسيتي المدمرة؛ لذلك أقولها وعن تجربة..

لا تبخلوا بالكلمة الطيبة، قد لا تصنع الحلول الفورية، لكنها أحيانًا تضفي على العاجز مفعولًا سحريًا،

يقوم على تجديد روح الأمل الذي كان قد أوشك على التلاشي..

أخرج من جيبه مبلغًا ماليًا ووضعه في يدي..

رفضت استلامه وأصررت على رفض ذلك فلم أكن أريد أن يتكبد المزيد من الديون..

لكنه لم يترك لي فرصة فوضعه في حقيبتي رغمًا عني وتحدث بصوت منخفض قائلًا:

- فور دخولكما إلى تايلاند، توجهي إلى أقرب مكتب سياحي ورتبي أمورك بأسرع وقت ممكن، واحجزي تذكرتين إلى كندا حيث تعيش شقيقتكِ، تأكدى أن وصولكما إلى هناك يعنى حصولكما على نسبة كبيرة من الأمان يا ليلى.

ثم أخذ مني عنوان أختي هناك ورقم هاتفها النقال حتى يتواصل معي ويطمئن عليّ..

وقد كانت فكرة سديدة، لم تخطر على بالي من قبل بسبب وضعي النفسي الذي لا يسمح لي بالتفكير النقي، أثناء حديثي معه كنت أفكر في مصيره الذي ينتظره من بعدنا، فاستمراره في التجول في وسط هذه النيران التي أشعلها خوليو بتصرفه المستفز مع لقمان ومن معه، هو قرار مرعب ويشبه الانتحار تمامًا؛ لذلك سألته سؤالًا يشبه التوسل، حين قلت له:

- ما رأيك أن ترافقنا؟ قد لا تتكرر هذه الفرصة بالنجاة.

ابتسم لي محاولًا إنهاء الحديث ثم قال:

- سبق وأن أكدت لكِ.. ولن أتراجع.. لن تستقيم حياتي إلا بعد الثأر

لأخي الغالي، هذا وعد قد قطعته عند قبره، ولن أتراجع عنه لو كلف الأمر اللحاق بروحه عبر السماء.

كنت متوقعة هذه الإجابة.. لكني أردت المحاولة..

قأيقنت حينها بعد جملته هذه أنه من الصعب أن تقنع مقهورًا بفكرة التسامح في ذروة قهره..

فكيف إذا كان هذا القهر على فقدان أخ، قد قُتل غدرًا وبدم باردا! خصوصًا أن ظروف يوسف لا تسمح له سلك الطرق النظامية أبدًا كما أخبرني من قبل، فإن عاد إلى بلاده، فالديون المتراكمة ستجعله نزيلًا في السجن، وإن توجه إلى الشرطة في ميانمار، فلائحة التهم العريضة في انتظاره؛

لذلك اختار الانتقام بنفسه.. لقد اختار نظام الغابة مع تلك الحيوانات الكاسرة!

وعليه لم أكن أملك حينها سوى الدعاء من أجله..

وأشرت بعدها إلى بتال بمرافقتي، وتوجهنا جميعًا إلى شاحنة صغيرة كان قد أحضرها خوليو..

ثم انطلقنا سوياً نحو الرحلة الأهم..

وأثناء الطريق كان الكولومبي يشرح لي جميع التفاصيل التي تنتظرني، سيكون في انتظاري أنا وبتال

حافلة صغيرة، ستنقلنا برفقة عشرة أشخاص نحو الحدود التايلاندية..

ولكن ليس قبل أن نستقل وسيلتي نقل أخريين، احتياطات أمنية كما يقول، ثم قال كما لو أنه ينصحني:

- هذه مجرد وسائل، أنتما مَن يسهم بجرأتكما ورغبتكما في النجاة في الاستفادة من توافرها من عدمه، لا مكان للتراجع أو التردد هناك.

- هل هناك ما يخيفكَ؟

شعرت أن سؤالي قد استفزه كثيرًا، حيث نظر إليّ بعد أن عقد حاجبيه غاضبًا قبل أن يرد عليّ قائلًا:

- نحن لا نخشى أحدًا، صراعنا مع العصابات الحدودية لا ينتهي، كل ما في الأمر أنني أريد منكِ التأهب لأيّ أمرٍ قد يطرأ عليكما.

عصابات حدودية!(12)

يبدو أن الرحلة ليست سهلة كما يحاول يوسف أن يقدمها لي، لكنه عاد ليحدثني حين أخبرني أنه قد طلب من رفاقه تمييزنا عند المهربين من بين جميع المتسللين معنا، بحكم خطورة أمرنا ومطاردة لقمان لنا على وجه الخصوص، لا أعلم إن كانت هذه التفاصيل بمثابة تطمينات أو أنها ستضعني تحت المزيد من الرعب والضغط النفسي الذي كان فائضًا لديّ في تلك اللحظة..

فقد سئمتُ الترقب من انتظار الفرج، ولكنني يجب أن أواصل ذلك..

كنت أتساءل بصمتٍ مطبقٍ؛ هل يتوجب عليّ أن أتجرعَ البشاعات كلها حتى أنجو؟

وإن وصلت، ما الممتع في ذلك بعد أن وصلت كجسمٍ مدنس فقط، بعد أن فقدت نفسي التي أحب!

مرعبة تلك المعادلة التي تخبرنا بأن هناك نوع من النجاة حتى تصله، عليك أن تخسر كل شيء حتى تكسب الوصول إليه!

كان الصمت حاضرًا أغلب الوقت، وبعد أن قطعنا الطريق بشكل متعرج وأطول من المتوقع..

وصلنا إلى الموقع المتفق عليه، كان الظلام يغطي المكان، لا ينيره سوى إضاءات سيارتنا الأمامية..

والحافلة التي كانت بانتظارنا..

ترجل خوليو من الشاحنة وهو مشعلًا سيجارته، وتوجه إلى الحافلة..

ثم قام باحتضان رجلين كانا يقفان بمحاذاتها، وبدأ في تبادل الأحاديث معهما..

نظر يوسف إلينا وأشار لنا بعلامة النصر، كان يريد أن يُدخل علينا بعض الطمأنينة..

ولم يتفاعل معه سوى ابني بتال، الذي أشار له بالعلامة نفسها مبتسمًا..

وبعد أقل من دقيقتين من الأحاديث والضحكات المتعالية، عاد خوليو إلينا وطلب منّا النزول،

لقد حانت ساعة الانطلاق، فساعدنا يوسف في حمل حقيبتي ثم

حدثني ساخرًا:

- الوداع هذه المرة مؤكد، لن يكن مثل المرة الماضية.

- هل تعدني بأنكَ ستتواصل معي على عنوان أختي في كندا؟

- أعدكِ أن أنهك هاتفها من كثرة اتصالاتي.

الحقيقة رسم بحديثه الضحكة على شفتيّ على الرغم من وضعي النفسي؛

لذلك اقتربتُ منه واحضنته وأنا أحدثه بحزن غير مفهوم:

- كذلك هذا الحضن، سيكون الأخير ليس كحضن المرة الماضية.

بادلني الحضن هذه المرة وكأنه كان متأكدًا من الفراق، ثم وضع حقيبتي على كتفي..

قبل أن يحتضن ابني بتال بقوة ملحوظة، ويقبّل جبينه بعد أن خلع وشاحًا أزرق كان يرتديه..

ثم لفه حول رقبته الصغيرة وهو يقول له:

- ما زلت عند رأيي السابق، أنتَ رجل قوي يا بتال.

ابتسم له ابني ثم أمسك بيدي وكأنه كان يريد أن يخبر الجميع بتصرفه هذا أنني قد أصبحت في حمايته..

كم أعشق هذا الصغير اللطيف!

ركبنا الحافلة؛ كانت حديدية ومتهالكة بشكل ملحوظ..

وبداخلها العديد من الأشخاص من جنسيات آسيوية مختلفة، كان

الظلام يخفي وضوح وجوههم..

وللأسف لا يوجد تكييف، الأنفاس تختلط والروائح لا تُطاق، والكراسي غير مريحة..

حيث كانت متآكلة بشكل مزعج جدًا.. أغلب الموجودين من الرجال..

وجدت كرسين فارغين في المؤخرة بجانب امرأتين تكبراني سنًا، فجلسنا بجانبهما..

وبعد ربع ساعة تقريبًا، انطلقنا..

كان يوسف يلوّح لنا من الخارج، وبادلناه التلويح بالوداع..

لقد كان اللقاء الأخير فعلًا مع ذلك الشهم، وكنت حزينة جدًا على فراقه..

تمنيث لو أنه قد بقى معنا فترة أطول من هذه الرحلة، لكنها الظروف، كانت هي ما تتحكم فينا وليس العكس، استحالة أن أنساه..

بعد أن قطعنا مسافة لا بأس بها، بدأت الرياح تداعبنا من جميع الجهات..

لم يكن الطريق مريحًا، فالتقلبات بالمسار والاهتزازات المستمرة أثناء قطع المسافة جعلتني أُصاب بالغثيان،

حتى بتال لم يكن على ما يرام، ولكن لا مجال أمامنا سوى الانتظار إلى أن نقترب من النهاية..

لقد خضنا ما خطط له خوليو وأخبرنا عنه تمامًا في هذه الرحلة الطويلة، توقفنا مرتين..

بدلنا فيهما الحافلات، كل حافلة للأسف كانت أسوأ من التي قبلها..

لاحظت المرأة التي كان يلاصق كتفها كتفي عدم تأقلمي مع الظروف والذي لم يكن اختياريًا؛

بل رغمًا عني، فهمست لي بسخرية:

- اصمدي، هذه رحلة تهريب، ليست رحلة سياحية.

كانت مُحقة وهي تقولها بالإنجليزية المبسطة، لكن الوضع كان لا يُطاق قَط..

في كل مرة أنظر إلى ساعة هاتفي، كنت أشعر أن الوقت يمضي ببطء، حتى غلب النوم عينيّ بتال،

لكنه لم يقترب من عينيّ قَط.. فالظرف غير الطبيعي والذي كان لا يشبهني ولم أتوقع أنني سأعيشه يومًا..

كان يفوق قدراتي المحدودة كفتاة، فوق طاقتي؛

لذلك كانت تفاصيله كالكابوس، لكن عليّ أن أستمر فيه حتى ينتهي كليًا، أتمنى ذلك.

ملامسة خط الوصول لا تعني النهاية..

يجب عليكَ تجاوزه فعليًا؛ حتى تُنهي السِّباق.

بعد الكثير من الصعوبات والكثير من الوقت العصيب..

اقتربنا بشكل كبير جدًا من الحدود، ولاحظنا بعض الأضواء البعيدة جدًا..

توقفت الحافلة.. وكانت بانتظارنا حافلة أخرى، أخبرونا أننا سنعبر على ثلاث دفعات..

حتى لا نقع في الفخ جميعًا إن وجد، كل حافلة ستحمل خليطًا من الرجال والنساء والأطفال(13)

كنت أنا وبتال مع الدفعة الثانية، لا أعلم إن كان ذلك من سوء حظي أو من حسنه..

لم يكن يملك أحد منا حق الاعتراض..

وبينما كانت الدفعة الأولى من الأشخاص يستعدون للصعود إلى الحافلة الأخرى الموجودة خلف الأسلاك الشائكة من أجل الانطلاق، بدأ المطر يهطل!

كان متوسطًا حتى بدأ في الازدياد تدريجيًا، لكن ذلك لم يمنع الجميع من المواصلة..

فعلى الرغم من خطورة المحاولة، إلا أنني شعرت من طريقة اندفاع الراغبين في الهرب..

برغبتهم الجامحة لخوض المغامرة نحو حياة أفضل، وليست أكيدة..

وبينما كنا ننتظر وصول الإشارة بالتحرك.. شعرت ببعض البرد..

لاحظ بتال ذلك بعد أن استيقظ؛ فخلع الوشاح الأزرق القطني الذي كان -لا يزال- ملتفًا حول عنقه، ووضعه حول عنقي وبالقرب من فمي.. رفضت ذلك حتى لا يصاب بالبرد..

لكنه أصر وهو يشير بيده لي بأن نتقاسم الوقت والتناوب في ارتدائه حتى ندفأ معًا، لم أمانع؛

فقبولي لفكرته تجعله يزداد ثقة وقوة، شكرته وقبّلت جبينه، وقبّل جبيني كذلك..

وبعد قرابة الساعتين من الانتظار، حان دورنا للتسلل..

وصلت الحافلة التي ستنقلنا، نزلنا جميعًا وتوجهنا نحو الثغرة التي صنعوها لنا بعد أن قصّوا الحواجز الشائكة من أجل العبور، كنا نعاني من السير بسبب التربة اللزجة التي تسببت فيها مياه الأمطار..

نتقدم دون مظلات، والمطر يصب صبًا، كنت أحاول سحب ابني بتال الذي كان يعاني من تحريك قدميه النحيلتين؛ لذلك كنا آخر الواصلين، حملته وأدخلته قبلي، ثم لحقته في الصعود..

وجلسنا في آخر الحافلة الصغيرة بجانب امرأة وحيدة، ثم أغلق أحدهم الباب بقوة وتحرك السائق..

أكاد لا أصدق، نحن الآن نتحرك فوق الأراضي التايلاندية!

واستمر المطر في الهطول، أسدل كستارة ماء على الزجاج الأمامي للحافلة..

مخفيًا عنا مشاهدة الطريق، كنا كما لو أننا نخترق المسار بواسطة

قارب..

أخرجت من حقيبتي تفاحة، قدمتها إلى صغيري بتال، فلاحظت ذلك المرأة التي بجانبي..

فشعرت ببعض الإحراج فأخرجتُ لها التفاحة الأخيرة وقدمتها لها، ابتسمت لي وأخذتها بلا أي تردد،

وأشعرتني طريقتها في التهامها كما لو أنها كانت تنتظر هذه الوجبة منذ سنوات..

حزين هو أمرنا وأمر كل من يرافقنا فى هذه الرحلة الخطيرة..

كان ابني بتال يراقب الموقف؛ فقرر أن يقتسم تفاحته معي، ياه كم يملك هذا الصغير من الحنان؟

لا أعلم كيف كانت تزداد عاطفته كلما ازدادت معنا قسوة الظروف، قبِلت هديته اللطيفة..

قبل أن أعيد إليه الوشاح، فقد حان دوره في التدفئة، ورفعت التفاحة كي أبدأ في تناولها..

ولكن ظهر صوت لافتًا غير مفهوم!

كان صوت المطر يطغى على المكان، عدت لتناول التفاحة، ولكن صرخ أحدهم فجأة فالتفتنا إليه..

كان بجانبه شخص مقتول تسيل من رأسه الدماء!

لم أستوعب تلك الصدمة المباغتة دون أيّة مقدمات.. حالة فوضى كبيرة حلت علينا جميعًا داخل الحافلة.. قبل أن تظهر سيارة أمنية

خلفنا تطلب من سائق الحافلة التوقف فورًا!!

الجميع كان يصرخ، هنا قرر السائق أن يزيد من سرعته، فواصل رجال الأمن إطلاق النار من الخلف،

أسلحة مرة أخرى، اللعنة على صوتها الذي لا يجلب سوى الرعب والرغبة في الدمار..

كنت أتخيل العالم من غيرها، غالبًا لن يصبح الموت أحد الاختيارات التي يجعلها الإنسان المتوحش من أولوياته عند الدخول فى أى حوار..

وجدت نفسي أحتضن أبني بتال وأنا أرتعد رعبًا من هول الموقف، لكن حدث أمر ما؛

تدحرجت قطعة تفاحة من أمامي.. رفعت رأسي والتفت إلى يميني..

وجدت المرأة التي تجلس بجانبي تصارع سكرات الموت!

طلقة نارية قد اخترقت رقبتها من الخلف.. دفعتها وأبعدتها عني قبل أن أحجب الرؤية عن ابني حتى لا يصدمه المشهد.. كنت أرتجف رعبًا من هول الموقف..

هنا صرخ مرافق السائق وطلب منا إخفاض رؤوسنا.. ثم خرج من النافذة الجانبية..

وبدأ في إطلاق النار عليهم من الرشاش الناري الذي بحوزته، هذا كله يحدث والأمطار لا تزال تنهمر بقوتها كلها..

هذا الهجوم كان بمثابة اعتداء مسلح، جعلهم يردون علينا بإطلاق النار بكثافة أكبر..

ولم يتوقف هو عن محاولة تعطيلهم باستمراره في إطلاق النار حتى أصابه أحدهم وسقط من نافذة السيارة! حينها أخرج السائق رشاشه.. وطلب ممن يجيد استخدامه من الرجال الموجودين مواصلة إطلاق النار حتى ننجو بحياتنا جميعًا من هذه الورطة الطارئة..

استلمه أحدهم متطوعًا وتقدم إلى النافذة نفسها وبدأ في إطلاق النار..

كان متمكنًا كما بد لنا؛ فقد أصاب سائق السيارة الأمنية مما جعله ينحرف بمركبته قبل أن يصطدم في كتلة صخرية بالقرب من بعض الأشجار، كان حادثًا مأساويًا بكل ما تعنيه الكلمة..

لقد تهشمت مقدمة سيارتهم وحتمًا تُوفي مَن بداخلها كلهم!

شعرنا أننا قد انتصرنا على الرغم من حجم الخسائر التي ألمت بنا.. وقبل أن نلتقط أنفاسنا من تلك المطاردة، حصل تطور لم نكن مستعدين له، تطور قد يُفسد كل شيء!

وجّه الرجل سلاحه إلى رأس السائق وطلب منه التوقف فورًا!

لم نصدق ما يحدث أمامنا، طلب أحدهم منه أن يتوقف عن هذا الجنون..

فأطلق النار على صدره قبل أن يكمل حديثه، دبّ الخوف فينا مجددًا غير مصدقين..

كان بتال يُخبئ وجهه في خاصرتي وكأنه لا يرغب في مشاهدة تلك المشاهد الدموية..

خفف السائق من سرعة الحافلة مجبرًا وهو ينصح الرجل بأن التأخير ليس من صالحنا أبدًا..

خصوصًا أن الطريق ترابي والأمطار تعرقله، لكنه كان مُصرًا على طلبه، وبمجرد أن أوقف الشاحنة..

أطلق على رأسه النار!!

لقد قطع الأمل الوحيد في العبور والنجاة، لا أصدق ما يحدث..

لا أصدق حجم النحس الذي كان يرافقني طوال هذه الرحلة، لقد تعطلت الرحلة في توقيت ليس من صالح الجميع، وجّه ذلك الحقير سلاحه نحونا وطلب منا النزول جميعًا..

وبينما بدأ الجميع التنفيذ، ما زال بتال مختبئًا بوجهه خلف خاصرتي!

ناديته مرارًا وأخبرته بانتهاء إطلاق النار، لكنه لم يجب، كررت مناداته ثم رفعته من كتفيه بيديّ..

فوجدته غارقًا في دمائه!!

تجمد نظري على جسده الطري الملطخ بالأحمر، وتوقف الزمن كليًا كما لو أنني تعطلت عن مواصلة الحياة بشكل غير مفهوم، كنت أسمع صرخات الرجل المسلح كالحلم، صوته يصلني كالصدى..

قبل أن يدفعني من كتفي وكأنه أعادني إلى واقعي من جديد..

صرخت صرخة اخترقت قوة صوت المطر، فُجع منها حتى تراجع إلى الخلف غير مستوعب لحالتي..

صرخت باسم بتال، أهزه بقوة، أخضه خضًا أريده أن يجيب..

لكنه كان يترنح بين يديّ كالخرقة البالية.. لا حول له ولا قوة!

احتضنته وأنا أصرخ حتى شعرت بالتمزق في حلقي وطعمت طعم الدم والذي كان واضحًا وهو يختلط مع اللعاب، لقد غرقت ملابسي بدمائه، فكنت استجدي من الآخرين مساعدتي..

لكنهم كانوا أشبه بالمتفرجين على عرض مسرحي أقل ما يمكن وصفه به أنه سوداوي!

كنت أتوسل إلى بتال لأن ينهض، ولأن يجيبني، أقسمت له إننا سننجو، وإننا سنصل إلى وجهتنا ويصبح الظلم والألم الذان تجرعناهما كلهما من الماضي..

لكنه كان للمرة الأولى، لا يجيبني بحركة عينيه، أبكي أمامه ولا يتعاطف معي، أتوسل إليه ولا يتأثر من أجلي، تجاهلت عشوائية الأصوات التي تريد مني سرعة النزول، وكنت أرتجف من البكاء أحاول مخاطبة صغيري، حتى حدث أمر ما؛ لقد شعرت أنه كان يتحرك بين يدى!

كادت عيناي أن تقفزا من مكانهما وأنا أتأمل المشهد، بوادر أمل قد حلت فجأة جددت بداخلي الأمنيات كلها التي أوشكت على التلاشي، لكنها سرعان ما شحقت!

لقد اندفع الدم من فمه فجأة قبل أن يُخرج آخر نفس في حضرتي..

لقد مات بتال!!!

وماتت حينها رغبتي في كل شيء، ماتت رغبتي حتى في النجاة..

وجدت نفسي أنتشل جسدي المثقل قبل أنتشل صغيري من القاع، كما لو أنني ألملم ما تبقى منه..

نزلت من الحافلة وأنا أحمله بين ذراعيّ غير مدركة لما يحدث كله..

رأسه الصغير كان يتدلى، والمطر يغرقني معه من دون أن يغسل بشاعة الحزن التي دنّست قلبي..

كنت أبكي، شعرت أن دموعي تنهمر أكثر من قطرات المطر نفسها، نظرت إليه غير مصدقة..

ثم رفعت رأسي إلى السماء، أطلقت صرخة من أعماقي اخترت صدر الفضاء كله..

كنت أتساءل بأقصى طبقة يمكن أن يصلها صوتي:

لماذا حدث هذا كله؟ هل أستحق هذا الخراب كله؟ ولم أنتظر أية إجابة فورية، وحتى إن عثرت عليها..

لا فائدة، فما وجدت نفسي عليه.. هي نهاية ليست عادلة.. نهاية لا أستحقها..

سقطت على الأرض ولم آبه بتألم ركبتيّ من الارتطام.. ثم

احتضنت بتال وأنا أنحب نحيبًا أرعب جميع مَن هم حولي، كانوا ينظرون إليّ والحزن يغشى وجوههم على الرغم من قساوة قلوبهم..

حتى الرجل المسلح لم يتجرأ ويطلب مني التوقف عما كنت عليه..

وبعد مرور بعض الوقت..

توقف المطر كما لو أنه يعلن بذلك عن انتهاء الفصل الأبشع من مسرحية الظلم التي كنت أعيش دور البطولة المطلقة.. بعد ذلك بدقائق سمعنا اقتراب صوت شاحنة حديدية!

توقفت أمام حافلتنا ونزل منها أربعة رجال أصحاء، أشار لهم الرجل المسلح إلى حافلتنا..

فأحضروا بعض المعدات وبدأوا في نشر الجزء السفلي للحافلة التي كانت تنقلنا..

ثم أخرجوا منها أكياسًا مغلفة تغليفًا قويًا!

كانوا ينقلونها وهم سعداء كما لو أنهم قد استولوا على كنز، علمنا جميعًا أنها ممنوعات!

اللعنة على خوليو وجماعته وعلى الجميع، لقد استغلوا حاجتنا للدخول بزرع المخدرات في الحافلة ونقلها معنا.. أو نقلنا معها، فلم نكن سوى مجرد غطاء ودخل إضافي لهم..

والمخدرات هي الأساس والأغلى من أرواحنا الرخيصة في نظرهم في هذه الرحلة اللعينة..

طلبوا منّا الصعود إلى صندوق الشاحنة المغطاة كي ينقلوننا إلى

أقرب منطقة مأهولة..

وسينزلوننا فيها كما أخبرونا، كي يتدبر كل شخص أمر نفسه، فصعد الجميع بلا تردد ولم يتبقَ سواي..

صرخ عليّ أحدهم طالبًا مني سرعة الصعود.. ولم أجبه..

كنت أنظر إلى وجه بتال بصمت مطبق وهو في حضني، كان كالملاك النائم هربًا من ظلم الدنيا البائسة،

ملاكًا لم يؤذِ أحدًا، لكن أكثر مَن صادفهم قد آذوه..

اقترب مني الرجل المسلح وأشار بسلاحه نحو رأسي، ولكنه لاحظ حالتي المزرية التي كنتُ عليها؛

فطلب من اثنين من أصدقائه حفر قبر صغير بسرعة قصوى.. ثم تحدث إليّ بلغة ركيكة:

- هذا أكثر ما يمكننى تقديمه إليكِ من أجل صديقنا خوليو، ادفنى ابنكِ حتى لا تأكله الذئاب ليلًا.. ولنغادر بسرعة.

نظرتُ إليه والألم والعجز كلهما قد امتزجا على ملامحي ثم رددت عليه:

- اللعنة عليكم جميعًا يا أنجس مخلوقات الأرض.

لكن للأسف لا تكفيهم اللعنات كلها، هم وهذه الدنيا الحقيرة، والتي لم تعد تسوى عندي أي شيء يُذكر، كنت أعيش حينها صراعًا غير مفهوم، صراع أم تنظر إلى طفلها الذي طالما كان فاقدًا لقدرته على الحديث، والآن قد فقد كل شيء، فقد قدرته على الابتسامة.. على

التنفس..

وفقد زوجه التي كانت أطهر الأرواح التي طالما اختلطت معها في رحلة الغربة..

لحظات لم أتخيل يومًا أن أعيش تفاصيلها ولا حتى في الخيال، لكنه الواقع البائس الذي فصّل رداءه على مقاسي كالكفن.. أقولها وأنا قد فقدت السيطرة كلها في التحكم على قواي..

أخبركم وتلك المشاهد المؤلمة لقلبي لا تفارقني تفاصيل أحداثها كل يوم..

للأسف لم يكن أمامي سوى دفن بتال في هذه البقعة من كوكب الأرض والتي لا أعلم عنها شيئًا سوى أنها تقع في الأراضي التايلاندية..

قبّلت رأسه غير مصدقة، ثم همست له في أذنه باكية:

- أنا أمك التي طالما حاولت أن تتظاهر أمامكَ بأنها لا تخاف، ولكن ما لا تعرفه عنها أنها ليست قوية بالكفاية التي قد تمكنها من الحصول على حق كتابة القدر كيفما تشاء وتتمنى، آسفة يا حبيبي بتال، آسفة.

ثم قبلّته مجددًا.. القُبلة الأخيرة، وغطيت جسده الطاهر بالتراب.

معلومات مهمة لا بد من الاطلاع عليها:

* تم القبض على الكثير من الرجال المتورطين في الاتجار في البشر والممنوعات في ميانمار بعد التسريب الذي قام به اليوتيبوبر الأسترالي.

* تمكنت الجهات الأمنية من تحرير الكثير من القاصرات والفتيات المختطفات من قبضة بعض العصابات والذين كانوا يستعدون لبيعهن وتوزيعهن على بعض الملاهي الليلة بالجزر البعيدة في بعض البلدان الآسيوية.

* وصلت ليلى بصعوبة بالغة إلى كندا بسلام عبر أوراقها الرسمية تمامًا كما خطط لها يوسف.

* على الرغم من محاولاتها المستمرة لم تتمكن ليلى من الوصول إلى يوسف والاطمئنان عليه.

* بعد مرور حوالي شهرين من وصول ليلى إلى كندا والمكوث عند شقيقتها، ظهر خبر مهم كان قد انتشر في ميانمار وتم تناقله في تايلاند على نطاق واسع، يقول الخبر:

«تم العثور على (لقمان) غارقًا في دمائه بعد أن اخترقت جسده قرابة الـ 60 رصاصة كانت قد أردته قتيلًا في وسط أحد منازله في ميانمار والفاعل مجهول حتى هذه اللحظة!

الخبر كان بمثابة انتصار لليلى والذي هوّن عليها فقدان ابنها كثيرًا.

* من المرجح وبنسبة كبيرة أن مَن قام بذلك هو (يوسف)، والذي حتى هذه اللحظة لا يوجد أي خبر يفيد عن مكانه أو عن وجهته

الجديدة التي قد استقر فيها.

* الخبر الجميل؛ وصلت رسالة ورقية عبر البريد إلى منزل شقيقة ليلى في كندا، تخبر ليلى أن يوسف بخير وأنه يرسل إليها أحر التعازي في فقدانها لابنها بتال، وقد ختم الرسالة بعبارة كتب فيها:

(ناموا بسلام.. لقد انتقمتُ لكم جميعًا).

هذه الرواية إهداء من الأم ليلى... إلى روح ابنها بتال..

(أمي لا تخاف)

وسبب اختيار هذا العنوان..

هو أنه يحمل الجملة المكتوبة نفسها من قِبل ابنها

على الورقة التي أهداها إليها قبل وفاته بفترة قصيرة.

تنويه مكرر وأخير..

جميع الأحداث مستوحاة من خيال الكاتب...

وجميع ما تمّ سرده من تفاصيل؛ هي تفاصيل قد تكون ليست.. (حقيقية).

---

(1) (جزيرة بينانج: هي ولاية ماليزية سياحية تشتهر بالمنتجعات الرائعة وتقع قبالة الساحل الشمالي الغربي من ماليزيا وتبعد عن العاصمة قرابة 380كم).

(2) (لا تتوقف تلك العصابات من استغلال ضعف بعض الفتيات وابتزازهن في احتياجاتهن المعيشية، يوجد الكثير من القصص التي لم تُروَ هناك، ولكن هناك حادثة ظهرت إلى العلن لاقت انتشارًا وتفاعلًا بعد أن شكلت ضغطًا على بعض الجهات، وهي حادثة فرار امرأة تايلاندية من خاطفيها في إقليم تشونغتشينغ الصيني، يقول الخبر:

«أفادت الشرطة التايلاندية اليوم (الثلاثاء)، أنّها ألقت القبض على خمسة أشخاص بتهمة الاتجار في البشر وإرسال نساء تايلانديات إلى الصين لاستعبادهن جنسيًا، ويعتقد أنهم جزء من عصابة تهرّب النساء -أيضًا- إلى ماليزيا وسنغافورة، وتأتي الاعتقالات بعد أسبوع من قرار الولايات المتحدة بالإبقاء على تايلاند ضمن قائمة لأسوأ مراكز الإتجار في البشر في العالم، كما ذكرت الحكومة التايلاندية أنّها تأمل في أن ترفع واشنطن اسمها من القائمة السوداء بعد حملة نفذتها، من جهته قال سوميوت بومبانموانغ قائد شرطة تايلاند للصحافيين، اليوم، «تايلاند عازمة على مواجهة الإتجار بالبشر والقضاء عليه».

واتهمت تايلاند في يوليو (تموز)، 72 شخصًا بينهم 15 مسؤولًا، بوجود صلات تربطهم بالإتجار في البشر بعدما وصفته الشرطة التايلاندية بأنه أكبر تحقيق على الإطلاق في هذه الجريمة، كما أوضح سوميوت أن السلطات الصينية تعاونت مع

سلطات تايلاند في القضية الاخيرة، بعد فرار امرأة تايلاندية من خاطفيها في إقليم تشونغتشينغ الصيني، وقالت المرأة للشرطة الصينية إنّها أُجبرت هي وثلاث نساء أخريات على ممارسة الجنس مع رجال بعد جذبهن للمجيء إلى الصين على وعد بالحصول على وظائف كمضيفات عبر موقع إلكتروني، وأضاف سوميوت أنّ شرطة تايلاند اعتقلت أربع نساء ورجلًا، وأصدرت مذكرات اعتقال بحق أربعة من المشتبه بهم الآخرين، وقالت الشرطة التايلاندية إنّ السلطات الصينية ألقت القبض على صينيينِ يُشتبه بأنهما جزءًا من عصابة الإتجار في البشر».

المصدر: نُشر في صحيفة الشرق الأوسط بلندن؛ تاريخ 4 أغسطس 2015م).

(3) (مياوداي: هي مدينة حدودية مهمة في جنوب شرق ميانمار في ولاية كايين، وتقع على نهر موي الفاصل، وتعد نقطة تجارية رئيسية بين ميانمار وتايلاند).

(4) (المتاجرة بالعملات المضروبة: يُقصد بها التعامل بعملات مزيفة شبيهة بالأصلية وهي أموال ليس لها غطاء رسمي معتمد، وهي من أخطر الأنواع من المتاجرات الممنوعة؛ حيث تتم طباعتها بطرقٍ غير نظامية، ومن ثَمّ تداولها بين الناس).

(5) (يقول الخبر:

قال أعلى جنرال في الشرطة التايلاندية والذي يقود عمليات مكافحة مراكز الاحتيال لرويترز: «إنه على الرغم من بدء حملة دولية منذ أسابيع؛ فإن مراكز الاحتيال على طول الحدود بين تايلاند وميانمار -لا تزال- تعمل ويعمل بها ما يصل إلى مئة ألف شخص، وتقود تايلاند جهدًا إقليميًا لتفكيك مراكز الاحتيال على طول حدودها، والتي تشكل جزءًا من شبكة في جنوب شرق آسيا من المرافق غير القانونية التي تولّد مليارات الدولارات كل عام، وغالبا ما تستخدم الأشخاص».

وقال الجنرال ثاتشاي بيتانيلابُوت؛ قائد الشرطة في ميانمار: «إنه استنادًا إلى التقييمات الأولية لبعض الأشخاص البالغ عددهم 5000 شخص والذين تم انتشالهم من مراكز الاحتيال المترامية الأطراف في منطقة مياوادي، ذهب المئات إلى هناك طواعية، داعيًا إلى إجراء تحقيقات دقيقة بين مواطني أكثر من 12 دولة لتصفية

المجرمين».

وقال تاتشاي في مقابلة: «يستخدم العديد من الأشخاص تايلاند كوسيلة للتسلل إلى مياوادي؛ بحثًا عن عمل، وهذا لا يتعلق فقط بعصابات مراكز الاتصال ولكن أيضًا بأعمال المقامرة عبر الإنترنت وغيرها من المهن».

وتأتي تعليقاته على النقيض من التقارير واسعة النطاق التي تشير إلى أن العاملين في مراكز الاحتيال في منطقة مياوادي والمناطق المحيطة بها كانوا ضحايا؛ حيث تم إغراؤهم للذهاب إلى هناك من قِبل زعماء إجراميين.

المصدر: نقلًا عن (رويترز) بانكوك 18 مارس آذار، تقرير بانو وونغشا، أوم وبانارات ثيبغومبانات، تحرير: ديفجوت غوشال وسعد سيد).

(6) (مونت لون ياي با)Mont Lin Ya Pyaw :- هي حلوى شهيرة في ميانمار يتم صنعها على شكل كرات دقيق الأرز تُغلى في الماء أو حليب جوز الهند ثم تُقدم مع جوز الهند المبشور).

(7) (تزخر البلدان الآسيوية بالكثير من الأطباق اللذيذة، وفي ميانمار العديد منها، وأشهرها هو طبق الموهينغا (Mohinga) وهو طبق ميانمار الوطني، يتكون من حساء سمك بنودلز أرز دائري رفيع، يقدم في أوقات مختلفة ولكن عادة ما يُقدّم كوجبة إفطار دسمة).

(8) (أغنية سعودية شهيرة لفنان العرب: محمد عبده، من كلمات الشاعر الكبير الأمير: خالد الفيصل، انتشرت الأغنية بشكل كبير حتى أصبحت تعبر عن حال التائهين في الغربة بسبب أي دافع كان، سواء عاطفي أو غيره، وقد تم تداولها حينها في أرجاء العالم العربي وإلى اليوم).

(9) (تكثر الرحلات غير المشروعة بين البلدين، وهي مغامرات أقل ما يمكن وصفها به أنها خطيرة، يقول الخبر هنا:

«قالت شرطة الهجرة التايلاندية إن تهريب البشر عبر الحدود من ميانمار إلى تايلاند يتزايد رغم حملة السلطات في البلدين للحد من هذه الظاهرة والتي جعلت التهريب

أكثر كلفة وخطرًا، وفي وقت سابق هذا العام عبّرت تايلاند عن أملها في أن تعترف الولايات المتحدة في تقريرها السنوي بشأن الاتجار في البشر، الذي يتوقع أن يصدر خلال الشهر المقبل، بالجهود التي تبذلها الحكومة التايلاندية في مواجهة عمليات التهريب.

لكن رغم ما يبدو أنه تراجع في عدد المهاجرين الذين يقومون بالرحلة المحفوفة بالمخاطر عبر البحر تظهر إحصاءات شرطة الهجرة عبر الحدود البرية زيادة في عمليات تهريب البشر من ميانمار منذ عام 2014م، حين تولت حكومة عسكرية مقاليد الحكم في تايلاند وتعهدت بشن حملة ضد عصابات تهريب البشر والاتجار بهم».

وقال سومبونج سايمونكا؛ نائب مفتش شرطة الهجرة عبر الحدود في إقليم تاك بغرب تايلاند، وهو البوابة الرئيسية للعبور البري من ميانمار، لرويترز: «ضغطنا عليهم بشكل كبير؛ مما أجبرهم على إيجاد سبيل جديد للدخول، لا يمكننا إحكام الرقابة على (هذه المنطقة) كلها، ورغم انتعاش الاقتصاد في ميانمار، التي يتوقع البنك الدولي أن يبلغ متوسط النمو السنوي فيها 7.1 في المئة على مدى الأعوام الثلاثة المقبلة، فلا تزال الأجور ضمن الأدنى بين دول المنطقة».

ووقعت تايلاند وميانمار اتفاقًا العام الماضي يسمح للمهاجرين من ميانمار بالعمل بصورة قانونية في تايلاند، لكن لا يتحمل الكثيرون الانتظار لمدة تصل إلى ستة أشهر حتى تصدر أوراق الهوية؛ فيلجأون إلى المهربين لعلهم يحصلون على فرصة.

وتظهر بيانات الشرطة في ماي سوت أن عدد الأشخاص الذين هرّبتهم العصابات من ميانمار ارتفع من 20323 شخصًا في عام 2014م إلى 24962 في 2016م، ويبلغ طول الحدود بين تايلاند وميانمار في إقليم تاك نحو 500 كيلو متر.

المصدر: رويترز، تاريخ: الخميس 2017/5/11م).

(10) (هناك أخبار شبيهة بتفاصيل هذه الحادثة التي عاشتها ليلى برفقة زوجها لقمان، أحدهم ذلك الخبر الذي تصدر عناوين الصحف آنذاك، يقول الخبر:

أسفر انفجار قنبلة يدوية أمام ملهى ليلي في منطقة سياحية بكوالالمبور في ماليزيا، عن قتيل واحد وعشرة جرحى بينهم أجانب، كما أعلنت الشرطة في هذا

البلد في جنوب شرقي آسيا، ومات حارس مرآب متأثرًا بجروحه في المستشفى نتيجة هذا الانفجار، الذي وقع فجرًا في حي بوكيت بينتانغ الشعبي بالعاصمة للتسوق والحياة الليلية، وفي تصريح لوكالة (فرانس برس)، قال قائد شرطة كوالالمبور تاج الدين محمد عيسى: »نعتقد أنها قنبلة يدوية وضعت أمام الملهى«، موضحًا أن المحققين عثروا أيضًا على قنبلة يدوية غير منفجرة، وصرح زين السماح قائد شرطة المنطقة التي وقع فيها الحادث، لوكالة (فرانس برس) بأن الانفجار أسفر بالإجمال عن قتيل واحد و12 جريحًا، لكن مصدرًا آخر في الشرطة تحدث عن 14 جريحًا بالإجمال، وبالإضافة إلى حارس المرآب، فإن ثمانية من الجرحى هم من ماليزيا واثنين من الصين وواحد من سنغافورة وواحد من تايلاند، ولا تعرف الشرطة حتى الآن دوافع الهجوم، لكن مسؤولًا كبيرًا في قوات الأمن يقول إن ما حصل هو على الأرجح تصفية حسابات بين العصابات.

المصدر: صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ 9 أكتوبر 2014م).

(11) (تتكرر مثل هذه العمليات لضحايا التهريب أو ضحايا تجارة البشر والكثير من الأخبار تم تناقلها بهذا الخصوص، يقول الخبر هنا:

قالت الشرطة التايلاندية اليوم الثلاثاء أنها اكتشفت مخيمًا ثانيًا يُشتبه بأنه للاتجار في البشر في تايلاند قرب الحدود الماليزية، بعد أن عثرت السلطات على 26 جثة في مقابر في أحد الجبال في مطلع الأسبوع.

ويعتقد أن هذه الجثث لمهاجرين غير شرعيين من ميانمار وبنغلاديش، وعثر عليها في معسكر يشتبه في أنه لتهريب البشر في أعماق الأحراج في إقليم سونجخلا جنوب تايلاند، ويقوم مهاجرون غير شرعيين كثيرين منهم من مسلمي الروهينجا من غرب ميانمار ومن بنغلاديش بهذه الرحلة الخطيرة بحرًا؛ للفرار من الاضطهاد الديني والعرقي، ويصل سنويًا إلى تايلاند التي تقطنها أغلبية بوذية آلاف نقلهم مهربون للبشر، وينقل كثيرون منهم برًا إلى معسكرات في الأحراج؛ حيث يطلب المهربون فدية لتهريبهم جنوبًا عبر الحدود إلى ماليزيا التي تقطنها أغلبية مسلمة، وأعلنت الشرطة التايلاندية أمس الاثنين توجيه اتهامات من بينها الاتجار في البشر واحتجاز أشخاص نظير الحصول على فدية ضد رجل من الروهينجا وثلاثة من مسؤولي إدارات محلية، وقالوا إن الشرطة تسعى لاعتقال أربعة تايلانديين آخرين.

المصدر: نُشر في صحيفة الشرق الأوسط بلندن، تاريخ 5 مايو 2015م).

(12) (يقول الخبر الذي طرح موضوع الاضطرابات الحدودية بين العصابات الخطيرة هناك:

تصاعدت التوترات على طول الحدود التايلاندية الميانمارية، لا سيما في المناطق الخاضعة لسيطرة ميليشيا (ريد وا)، المشتبه في إدارتها لمواقع كبيرة لإنتاج المخدرات، وتورطها في نزاعات إقليمية مستمرة، وقد أدت هذه الترسيمات الحدودية غير المكتملة إلى اشتباكات مع الجنود التايلانديين؛ حيث تؤكد التقارير أن قوات (ريد وا) توغلت في الأراضي التايلاندية في عدة نقاط؛ مما زاد من خطر نشوب صراع مسلح.

وقدّم الجيش الملكي التايلاندي خرائط لقواعد ميليشيا (ريد وا) على طول الحدود إلى نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع (فومتام ويتشاي تشاي)، مسلطًا الضوء على المطالبات الإقليمية المتداخلة وتقييم القوة المتنامية للميليشيا، بما في ذلك ترسانتها من الطائرات بدون طيار المسلحة، والأسلحة المضادة للطائرات، والأنفاق الكبيرة تحت الأرض المستخدمة كقواعد محمية ضد هجمات المدفعية.

ومن بين الجماعات المسلحة العرقية في ميانمار، تعتبر ميليشيا (ريد وا) الأقوى والأكثر إثارة للخوف؛ حيث تستخدم تكتيكات حرب العصابات التي تخيف الفصائل المعارضة.

حاليًا، تُجري المنطقة العسكرية الثالثة في تايلاند حوارًا محليًا مع قادة الميليشيات لتعزيز التعايش السلمي، ومع ذلك في حال وقوع توغلات إقليمية، يستخدم الجيش أساليب الاحتجاج والضغط لصد الميليشيات، وهي استراتيجية مستخدمة منذ أكثر من 30 عامًا.

المصدر: موقع (Nation Thailand) وهو الموقع الإخباري الرئيسي باللغة الإنجليزية لـ Nation Group وهو مصدر موثوق للأخبار والمعلومات حول تايلاند، الخميس 29 مايو 2025م).

(13) (المرور عبر الحدود هو أمر ممكن لكنه ليس سهلًا؛ فهناك مئات ومئات القصص المؤلمة التي يتم الكشف عنها بعد نجاح الجهات المختصة في صد

مرور المهربين، ولكن المحزن في الأمر هي تلك القصص التي ينجح أصحابها في العبور دون أن يعلم عنها أحد أي شيء، يقول الخبر المؤلم هنا والذي انتشر بشكل لافت في الصحف:

قالت الشرطة التايلاندية يوم الاثنين: إن عشرات من الأطفال كانوا من بين 98 شخصًا يشتبه في أنهم ضحايا للاتجار في البشر من الروهينجا من ميانمار تم اكتشافهم في شاحنات صغيرة في جنوب البلاد، في حين أقيمت المزيد من نقاط التفتيش في المنطقة لمكافحة التجارة.

وقال قائد الشرطة: سومبورن ثونجتشي؛ نائب مفتش منطقة (هوا ساي)؛ حيث تم العثور على المجموعة، إن سائقينِ تايلانديين يشتبه في تورطهما في تهريب الروهينجا، وهي أقلية مسلمة عديمة الجنسية في الأغلب من غرب ميانمار، يخضعان للاستجواب.

اعترضت الشرطة خمس مركبات، من بينها ثلاث شاحنات صغيرة، عند نقطة تفتيش في منطقة (هوا ساي) في إقليم (ناخون سي ثامارات) على بُعد نحو 700 كيلومتر (435 ميلًا) من بانكوك يوم الأحد واكتشفت العشرات من الرجال والنساء والأطفال النحيفين للغاية والمتعبين.

ومن بين المجموعة، كان هناك 42 طفلًا وطفلة تحت سن 14 عامًا، وكان أحد الروهينجا قد لقي حتفه.

وقال قائد الشرطة؛ سومبورن ثونجتشين إن هذا هو اكتشافنا الأول لمجموعة من الروهينجا، وهو ما يشير إلى أن التهريب في هذه المنطقة ربما زاد في السنوات الأخيرة.

كانوا محتجزين في ملجأ حكومي في (هوا ساي) وإذا اتبعت الشرطة الإجراءات المعتادة، فسيتم إعادتهم إلى ميانمار، أو قد يبقون في ملجأ لأشهر.

المصدر: رويترز، بتاريخ 12 يناير 2015م).